محمد عيسى الشرقاوى

الحرية وأخواتها

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

اقرأ

[٥٨٢]

الحرية وأخواتها

محمد عيسى الشرقاوى

الحرية وأخواتها

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى أمّى . .

لم تقرئى يومًا . . حروف الكلمات . .

لكنك كنت دومًا . . تقرئين كتاب الدنيا .

سطوره . . كم كانت مؤلمة ومضنية . .

لكنك كنت أبدًا . . صامدة مستبشرة .

« يسرا » . . و « داليا » . . يقرآنك السلام . .

محمد

مقدمة

مشاهد من زمن التحولات الكبرى

لم تشهد الدنيا فيضًا غامرًا من الأحداث التاريخية الكبرى .. مثلما تشهد منذ انهيار سور برلين فى ٩ نوفمبر ١٩٨٩ وحتى الآن .. فدراما التحولات الكبرى العاصفة للعالم لم يسدل عليها الستار بعد ..

لقد كان سقوط سور برلين تحت وطأة أقدام الجماهير الغاضبة الظمأى للحرية مشهدًا تاريخيًا مثيرًا .. كان إرهاصًا بانتحار النظام الشيوعى وإيذانًا بانهياره .. ليس فى دول أوربا الشرقية وحدها ، وإنما فى عقر داره بالاتحاد السوفيتى .

مقدمات هذه الدراما الصاخبة بدأت فى أبريل من عام ١٩٨٥ .. وقتها تولى ميخائيل جورباتشوف السلطة فى موسكو . وقد راودته فكرة جسورة .. أن يجدد شباب النظام السوفيتى . وأن يضفى لمسات إنسانية على وجه الشيوعية حتى تختفى وراء قناع التجميل تجاعيدها الفكرية المخيفة ، كان يسعى للإفلات بالنظام من خندق الركود الاقتصادى المدمر ، ولذلك طرح فكرة المصارحة (الجلاسونست) وإعادة البناء (البيروسترويكا) ، كان يطمح إلى حشد المثقفين والجماهير فى صفوف مسيرته الإصلاحية الجديدة .

لكن المخاطرة التى لم يقدر لها « جورباتشوف » حسابًا هى أن الجماهير انطلقت من إسار الماضى على أجنحة الحرية الجديدة .. وحلقت إلى مدى أبعد كثيرًا مما خطط له ، لقد تفجرت فى كافة أنحاء الإمبراطورية حملة انتقادات شعبية وقومية عنيفة . ضد النظام القائم ، وضد « جورباتشوف » شخصيًا بسبب الإخفاق فى توفير سبل المعيشة الأساسية .. وسرعان ما اقترن الغضب على فشل المشروع الاقتصادى السوفيتى .. بتفجر المشاعر القومية ومطالبة الجمهوريات بالاستقلال .

فى ذلك الوقت العصيب ، بدأت العناصر المتشددة من الشيوعيين تجمع صفوفها .. وتعرب عن غضبها من سياسات « جورباتشوف » الإصلاحية والديمقراطية .. بينما انفرط عقد القوى الإصلاحية والليبرالية المساندة له .. بدعوى أنه يتباطأ فى تنفيذ إصلاحاته السياسية والاقتصادية .. وقد تمخض هذا الوضع عن تراجع « جورباتشوف » خطوة وربما خطوتين إلى الوراء .. لقد ارتمى فى أحضان المتشددين وخاصة عندما تصاعدت الحركات القومية مطالبة باستقلال الجمهوريات .

ولم يكن ثمة حل وسط للخروج من هذا المأزق سوى إرضاء هذه الحركات من ناحية ، والاحتفاظ بصيغة وحدوية فضفاضة للاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى ، ولذلك تم الاتفاق على توقيع اتفاقية اتحادية جديدة تقلص نفوذ موسكو وهيمنتها القديمة على الجمهوريات .

وعشية يوم توقيع الاتفاقية .. وقع الانقلاب الفاشل ضد جورباتشوف فى ١٩ أغسطس ١٩٩١ ، ولما كان اليوم الثالث فشل الانقلاب .. وعاد

جورباتشوف إلى السلطة .. غير أن الاتحاد السوفيتى لم يعد مثلما كان ، لقد تسارعت حركة إعلان استقلال الجمهوريات وبدأت عملية تفكك الإمبراطورية وانهيارها .. ثم صدر مرسوم « موت الاتحاد السوفيتى » فى ٨ ديسمبر ١٩٩١ .. وهو المعروف باسم « بيان مينسك » الذى أعلن قيام « الكومنولث الجديد للدول المستقلة » .. ثم تلاحقت الأحداث وقدم جورباتشوف استقالته فى ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ ، ونزل العلم السوفيتى من فوق سارية الكرملين بعد أن ظل يرفرف فوقها منذ عام ١٩٢٢ .. ورفعوا بدلاً منه علم روسيا القديم .

هذا المشهد السوفيتى الأخير .. يعنى أن واشنطن تقف وحدها الآن فوق قمة العالم .. ويعنى أن الشمولية اندحرت .. وأن الليبرالية ترفع أعلامها .. لكن دراما التاريخ لم تكف عن الحركة .. ولن يسدل عليها ستار النهاية رغم هذا المشهد .

* * *

المشهد السوفيتى الأخير كان لحظة كونية كبرى .. انعكاساته شملت الدنيا كلها .. تأثيراته لم تقتصر على دول أوربا الشرقية التى تحررت وإنما امتدت إلى دول أوربا الغربية ذاتها .. فتوحدت ألمانيا .. وبدأت ظاهرة سياسية كابوسية مروعة تطفو على سطح الأحداث فى دول الغرب .. هى عودة رموز شرسة للفاشية والنازية .. تطل الآن بوجهها القبيح .. تثير الصخب والجدل حينا ، وتفجر المخاوف والهواجس فى كل حين .

وعندما يقترن ظهورها بحالة من الركود الاقتصادى لم تشهده هذه

البلاد منذ عهد الركود الكبير فى الثلاثينيات من هذا القرن .. فإن هذه الأوضاع القاتمة تطرح تساؤلات معتمة عن الأيام القادمة .

يزداد إلحاح التساؤلات نظرًا لأن الوضع السياسى الدولى فى حالة سيولة لم تتضح معالمه الجديدة بعد ، برغم انفراد أمريكا بقمة العالم .. ذلك أن مصطلح النظام الدولى الجديد لم يزل فضفاضًا يكتنفه الغموض .. لم تتبلور معالمه ، ولم تتضح أبعاده : هل يكفى للدلالة على ذلك أن واشنطن لا يعنيها فيما يبدو من أمر هذا النظام فى المستقبل المنظور سوى تصفية من تتصور أنهم أعداء انتصارها .. وانفرادها بالقمة .. ريتشارد تشينى وزير الدفاع الأمريكى (فى عهد الرئيس بوش) يقول : واشنطن لم تعد تعرف عدوها الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى !!

* * *

المشهد السوفيتى لم تقتصر تأثيراته على أوربا .. لقد توغلت انعكاساته حتى أفريقيا .. القارة السوداء التى شهدت ساحاتها تصاعد الصراع الاستراتيجى بين موسكو وواشنطن .. خرجت من أتون الحرب الباردة مثخنة بالجراح الاقتصادية والسياسية .. وهى تضمد الآن جراحها .. وتحاول شعوبها اللحاق بقاطرة الديمقراطية .. لقد أهدر زعماء القارة أكثر من ثلاثين عاما من استقلالها .. منذ موجة الاستقلال الأولى عام ١٩٦٠ وحتى الآن .. لقد رفعوا أعلام الحزب الواحد الذى أفرخ الديكتاتورية والطغيان السياسى ، وأهدر فرص التنمية الاقتصادية .. ونثر فى تربتها بذور الفساد والإفساد .

* * *

معذرة .. كان لابد من هذه المقدمة علها تجمع خيوط المشاهد المتناثرة على الصفحات القادمة .. مشاهد اخترتها من بين ما نشرته فى صحيفة « الأهرام » – اعتبارًا من ٤ نوفمبر ١٩٨٩ – فى باب صغير أسبوعى باسم « حكاية سياسية » .. وكانت المصادفة التاريخية وحدها هى التى جعلت ظهور « حكاية سياسية » .. يقترن بعاصفة التحولات الكبرى .. وحاولت كصحفى أن أرقبها .. أن أطرح مجرد رؤية من حولها .

حاولت أن أستبصر بآراء ومواقف مفكرين وكتاب هم كوكبة زمانهم وكل زمان .. لكن عندما كان قيظ الأحداث يشتد من حولى كنت ألتمس الرأى عند رواد وأئمة عصر التنوير المصرى والعربى .. كنت ولازلت أحاول أن أمسك بطرف من فكر رائدنا ومعلمنا العظيم « رفاعة رافع الطهطاوى » .. كنت ولازلت أسعى للاقتراب من سيرة ومسيرة الثائر والكاتب المصرى العظيم « عبد الله النديم » .. إمام الوطنية فى أرقى تجلياتها .

رفاعة .. رغم بعد الزمان .. كان يرقب بفكره الثاقب التحولات الكبرى .. كان ولا يزال يبشر بالحرية والديمقراطية والعدل ..ابتدع أرقى صيغة حضارية لعقد قران سعيد بين الأصالة والمعاصرة رفاعة .. يقول لكم .. لسنا غرباء عن هذا الزمن وتحولاته الكبرى .. ولن نكون ..

الجيزة – ٢٥ أبريل ١٩٩٢

محمد عيسى الشرقاوى

١

رفاعة .. يقول لكم !

العدل أساس العمران !

شاب فى مقتبل عمره سافر إلى باريس .. جلس ذات يوم على مقهى يحتسى الشاى .. أثار انتباهه أن الجالسين من حوله لا يثرثرون وإنما يقرأون صحفا لم يعهدها فى بلاده .. استبدت به الدهشة عندما دخل المسرح فوجد « أن التياترو عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيه العالم والجاهل » .. محراب للتنوير .. لاقاعة للخلاعة ودغدغة غرائز السفهاء الجدد .

لكنه لم يذهب إلى هناك لارتياد المقاهى والمسارح ، وإنما لمهمة أخرى .. كان أمام البعثة المصرية إلى مدينة النور .. منذ أبحرت به السفينة من شاطىء الأسكندرية .. عقد العزم على اكتشاف الحضارة الجديدة .. تعلم لغتها .. انكب على دراسة كتبها .. ترجم منها ما استطاع إليه سبيلا .. وسجل يوميات ثورة أهل باريس على الحكم المطلق عام ١٨٣٠ فى كتابه الهام « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » .

عندما عاد إلى بر مصر .. عقد أواصر مصالحة حضارية كبرى فى

عصره بين أصالة تراثه العظيم ومعاصرة الأفكار الأوروبية الجديدة .. قطبًا عظيمًا كان فى حركة التنوير .. إمامها .. مؤسس الثقافة المصرية الحديثة .. وأول رئيس تحرير لأول صحيفة مصرية هى « الوقائع » ..

الزمن المصرى وقتها كان يستمع فى إجلال وخشوع لرفاعة رافع الطهطاوى .. فتى الأزهر النابغة .. رفع لواء الديمقراطية والعلم .. وأكد ضرورة الإخاء والمساواة .. يقول « العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » .

عندما بدأ عصر الظلمات أبان حكم عباس الأول .. نفوا الطهطاوى إلى السودان .. أغلقوا مدرسة الألسن التى كان مديرًا لها .. لم يعد إلا فى عهد إسماعيل .. واصل ما انقطع من رسالته .. وكتب كتابه العظيم « مناهج الألباب فى مباهج الآداب العصرية » .. كان يبشر العباد بالتغيير السياسى والاجتماعى .. رفاعة ظل طوال ٧٣ عامًا هى عمره يحلم بالغد الجميل » ..

لم تبرح خياله سنواته الخمس فى باريس ... بوابة الحضارة إلى الدنيا الجديدة .. تحت هذه البوابة تواصل الماضى بالحاضر .. عبرتها من بعده كوكبة من المصريين اللامعين النابهين .. يزقزق فوق أعمدتها الرخامية البيضاء « عصفور من الشرق » أطلقه « توفيق الحكيم » .. أما « طه حسين » فله معها قصة فريدة ..

لكن مياها كثيرة تدفقت فى نهر السين منذ ذلك الزمن البعيد .. باريس عاصمة النور تطير فى سماء سياستها الآن خفافيش الظلام

والإظلام .. « جان مارى لوبن » يبشر باغتيال الحضارة .. فوزه فى الانتخابات المحلية الأخيرة « يعمد » الأحزاب والتيارات النازية والفاشية فى أوروبا كلها .. البرابرة الجدد يخاصمون الإخاء والمساواة والحرية ..

« رفاعة » .. يا معلمنا العظيم .. المخاوف جمة .. والخطر جسيم .. الخفافيش تهاجم بالليل ولا تخشى النهار .. السفهاء يفترسون البراءة دون خوف أو وجل ..

رفاعة يقول ... الكرب لن يطول .. افتحوا كتب عصرالتنوير .. فلا عاصم لكم اليوم من طوفان الأحزان سوى أن تؤمنوا بالبديهيات .. « العدل أساس العمران » .. هذه كانت كلماتى إليكم .. طوق نجاتكم من التيه والظلمات ..

* ٢٨ / ٣ / ١٩٩٢

النديم .. والوطن الجميل !!

منذ كان صبيا اشتد ولعه بالشعر .. أدركته حرفة الأدب مبكرًا ... أورثته داء التمرد النبيل على الواقع .. حلق فى أجواء الخيال مع رؤى نورانية لوطن جميل .. لم يقبع فى داره يتعاطى مفردات عالمه الأسطورى الجديد ... وإنما خرج إلى الطرقات شاهرًا حروف الكلمات ... كابد شظف العيش .. لكنه لم يرجع أو يتراجع .. يتربع الآن .. فى قلب الوجدان المصرى .

أبوه اسمه « مصباح » .. خبازًا كان فى الأسكندرية .. نشأ ابنه عبد الله الذى اشتهر باسم « النديم » فى حى المنشية .. اختزنت مخيلة الفتى هموم الناس البسطاء ... أدرك أن التعليم والخلق القويم هما السبيل إلى رفعة الأوطان .. لذلك أسس أول ما أسس جمعية خيرية لتعليم الأطفال .. لكن زبانية السلطان تحرشوا به عندما رأوا أنه تجاوز حدوده .. لقد كان ينتقد رموز السلطة ...

تفتق ذهنه العبقرى عن فكرة لامعة .. أصدر مجلة أسبوعية بديعة ورائعة أسماها « التنكيت والتبكيت » .. هى عنده امتداد لدور المدرسة .. أما رسالتها فأعم وأشمل .. لعلها كانت أول صحيفة شعبية ... فقد حرص « عبد الله النديم » فى حذق ومهارة على أن يجعل مقالاتها وأخبارها ضربًا من التنكيت والتبكيت حتى يحقق المراد من إصلاح العباد .. كان يقول : « إن هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت » وقد

أرق ما كان ينشره أبالسة السلطان .. فكادوا له .. لكنه تصدى لهم بعنف وضراوة .. انتقل من الرمز إلى الجهر ..

وفى ذلك الزمن البعيد من سنة ١٨٨١ كانت صحيفة بريطانية للتنكيت فقط قد مضى على صدورها حوالى ٤٠ عاما وقد امتد بها العمر حتى المائة والخمسين ... لكنها لفظت أنفاسها منذ أيام .. عندما انفض القراء من حولها وأصبحت خسائرها المالية جسيمة .. كان اسمها « بانش » ..

أما مجلة النديم ... فكان لها قصة أخرى فقبل أقل من عام على إصدارها فى الأسكندرية ... انتقل بها إلى القاهرة لكنه فطن إلى أن زمن التنكيت والتبكيت قد انتهى .. وأن الوطن مقبل على حوادث جسام .. فالثورة العرابية تتحرك أحداثها .. والصدام قادم بين أحمد عرابى وبين القصر والغزاة الأنجليز .. لذلك غير اسم صحيفته إلى « الطائف » ..

« الطائف » كانت لسان حال الثورة ... وقد اختفت عندما فشلت واختفى معها صاحبها .. النديم .. ظل ٩ سنوات مطاردًا وهاربًا .. برع فى فن التخفى والتنكر .. عندما وقع فى أيديهم نفوه إلى يافا فى فلسطين عاد بعد أن أصدروا عفوًا عنه .. لم يسكن إلى الراحة .. واصل رسالته الكبرى فى التنوير والتعليم والوطنية ... أصدر صحيفته الشهيرة « الأستاذ » كدر بما كتب صفو حياة السلطان .. نفوه هذه المرة إلى « الآستانة » .. هناك مات غريبًا ووحيدًا ..

« عبد الله النديم » .. الوطن الجميل ... حلمك فى القلب لن يبرحه .. وفى العقل مستقره ومقامه .. رغم الأحزان لا تغمد قلمك .. أشهر سيف التبكيت قبل التنكيت فى قلب « عصر السوبر ماركت » إفرازات طموحاته لعينة وعقيمة ... اكشف زيف أكاذيبه البراقة ... إنقذنا من كوابيس أنباء الليل وأخبار النهار ...

* ٥ / ٤ / ١٩٩٢

عيون .. الجبرتى !

ذات مساء اغتالوا ابنه ومثلوا بجثته .. بينما كان فى الطريق من حى شبرا إلى وسط القاهرة .. هد الحزن والده .. انخرط فى نوبة بكاء مريرة وطويلة .. فقد بصره .. زاد من أحزانه أن شعورًا غائرًا بالذنب كان يخالجه .. أن السلطان الجائر وأعوانه انتقموا منه باغتيال ابنه .. مات متأثرًا بأحزانه .

هذه هى مأساة « عبد الرحمن الجبرتى » المؤرخ العظيم للزمان المصرى الحديث .. اسمه صار رمزًا ساطعًا لقداسة التاريخ .. لا تغمس ريشتك وأنت تؤرخ .. فى ملفات السلطان وحدها التماسًا لرضاه وعطاياه .. سجل بعيونك وقلبك وعقلك حركة الشعب .. كان هذا سر روعة كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .. وقد أثار عليه سخط « محمد على » لأنه جاهر باتهامه باغتصاب السلطة فى مصر عام ١٨٠٥ يقول الراوى أن الوالى انتقم منه بقتل ابنه .

عندما كان الجبرتى فى الرابعة والأربعين من عمره دخل الغزاة الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت .. رصد الجبرتى يوميات نضال الشعب وأحواله الاجتماعية .. لكنه لم يعكف على تأليف كتابه الفريد إلا بعد ٤ سنوات من اندحار الحملة الفرنسية .

التاريخ فى ذاك الزمان كان يمشى على الأرض مهلا .. لو أن العمر امتد بالجبرتى لروعه ما يحدث فى عصرنا .. مع إشراقة شمس كل يوم

يسعى التاريخ فى كل طرقات الدنيا .. يقصف من هول أحداثه وجسامتها ريشة المؤرخ العجوز .. ذلك أن « كاميرا التليفزيون » تسجل وحدها ما يحدث .

« الكاميرا » هى عيون جبرتى هذا العصر وريشته فى زمن الأقمار الصناعية .. العالم قرية صغيرة .. صغيرة .. ترصده عيون الكاميرا صباح مساء .. أعجوبة سحرها أشد وأقوى من ألاعيب معادلات الكيمياء فى معامل الحملة الفرنسية التى بهرت الجبرتى أيما إبهار .

هذه الأعجوبة لا تصور فقط .. وإنما تسهم فى صناعة التاريخ بالصوت والصورة .. حدث هذا فى موسكو .. حشدت « الكاميرا » مشاعر العالم لمناهضة قياصرة الانقلاب ضد جورباتشوف .. شاهدت الدنيا الجماهير وهى تندد بالإنقلاب وتغنى للحرية .. فزع القياصرة مما شاهدوا .. فلما كان اليوم الثالث استسلم منهم من استسلم .. وانتحر من انتحر ..

فى زمن السماوات المفتوحة التى تمطر أقمارها الصناعية أخبار الدنيا .. لا يمكن حصار الحرية وخنق مفردات الديمقراطية .. الشعوب تدخل مدن سقراط فيلسوف الزمن القديم .. كان يناقش كل القضايا فى الشوارع والحارات .. تتبعه الكاميرا الآن .. لا يجرؤ أحد على اتهامه بافساد عقول الشباب .

لكن « الكاميرا » .. مؤرخ هذا الزمان .. لا تعرف الحياد أحيانًا .. غلبتها عواطفها فانسالت دموعها وقت أن كان جورباتشوف يلقى أمامها

خطاب الوداع ليلة الأربعاء الماضى .. اعلم أن الجوع كافر .. ولم تأخذوا برأيى فى وحدتكم أو اتحادكم .. هذا شأنكم .. لكنى أقول لكم .. لن تستبينوا الصبح إلا ضحى الغد !

عيون الجبرتى .. تذرف دمعة على رجل غير التاريخ والجغرافيا .. جعل الحرية تغرد على أشجار الدنيا لكن الأشجار السوفيتية الأسمنتية فى زمنه لم تطرح ثمارًا يطعم الجوعى .. الكلمات وحدها رغم جمالها يصعب حتى على الشعراء مضغها ! هذا زمن الحرية والخبز معًا .. ولا وقت للجدل ..

• ٢٨ / ١٢ / ١٩٩١

الأستاذ .. والحرية

فتى فى الخامسة عشرة من عمره جاء إلى القاهرة من أسوان .. كان يلتمس فى دواوينها وظيفة يقتات من دخلها .. فقد كان ينتمى لأسرة من بسطاء القوم .. لكن طموحه كان عظيمًا .. وعشقه للأفكار كان كبيرًا .. أما ولعه بالحرية فكان أسطورة حياته .. فهى صلاته اليومية فى محراب الكون ... وذات صباح بدأ رحلته الكبرى .. خاطر بالاستقالة من وظيفته الآمنة .. امتطى طموحه صهوة عقل مستنير .. وطرق عالم الصحافة ... خاض معارك ضارية تحت راية الحرية وبيرق الوطنية ... حكموا عليه بالسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية ... كان ذلك عام ١٩٣٠ .. وقتها كان فى أوج شهرته ... كاتب مصر السياسى الأول .. مقالاته تستهل عصر التنوير الجديد ... وتروع سدنة الفساد وطغمة الإفساد .. إنه عباس محمود العقاد ... فى مثل هذا الشهر منذ ٢٨ عاما رحل عن عالمنا ..

عندما كان صبيا قرأ أعدادًا قديمة من صحيفة « الأستاذ » .. أجل صاحبها ومحررها « عبد الله النديم » خطيب الثورة العرابية وكاتبها العظيم ... علمته مقالات النديم إن الصحافة هى خط الدفاع الأول عن الوطن ... عن الحرية ... عن أحلام البسطاء .. كلمتها لابد أن تبقى قنديلا يضىء دنيا الحقيقة حتى تتوهج .. إذا لم تكن كذلك فهى مجرد لغو وثرثرة على الورق ... لا قيمة له ولا جدوى منه ...

وقد خطا أولى خطواته الواثقة فى صحيفة « الدستور » ! صاحبها ومحررها كان العلامة الكبير محمد فريد وجدى .. لم يحجر على رأى العقاد حتى ولو خالفه شخصيا .. وكان كثيرًا ما يخالفه ... على صفحات الدستور نشر الأستاذ أول حديث صحفى فى تاريخ الصحافة المصرية ... لقد حاور « سعد زغلول » وقت أن كان وزيرًا للتعليم قبل أن يصبح زعيما لثورة ١٩١٩ .

« الأستاذ » رغم رحيله .. لاتزال أفكاره تشهر قلمها فى وجه النظم الشمولية .. كان يمقتها كل المقت ... أما « النازية » فقد نازلها وهى فى أوج غطرسة قوتها .. فضح زيف ما تدعيه .. عندما ظن الخلق أن جيشها يقترب أبان الحرب العالمية الثانية .. رأى الأستاذ أن من الفطنة أن يبرح القاهرة إلى أسوان ... حتى تنكشف الغمة ..

« الأستاذ » بأفكاره وسيرته العطرة يقتحم ذاكرة أيامنا عندما تواترت الأنباء منذ أيام بإغلاق صحيفة « البرافدا » رمز الاتحاد السوفيتى القديم ... وبوق نظامه الشمولى .. لم تكن يومًا صحيفة .. كما علمنا العقاد معنى الصحف ... مجرد نشرة حزبية كئيبة كانت ...

عندما وقع الانقلاب الفاشل ضد جورباتشوف فى أغسطس الماضى .. فقدت البرافدا البصر والبصيرة ... بادرت بتأييد أنصار الزمن القديم ... عندما اعتقلوا بعد ثلاثة أيام توقفت عن الصدور .. لكنها عادت بعد أن ازالت صورة مؤسسها « لينين » من صدر صفحتها الأولى .. وطمست شعاره : يا عمال العالم اتحدوا ... لكنها لم تخدع

أحدًا .. كانت تحتضر حتى ماتت .. يقول محررها الأخير فى مرثية الحكم الشمولى : « فى البدء انتهى الحزب الشيوعى ... ثم انهار الأتحاد السوفيتى ... والآن ماتت البرافدا » !

« عباس محمود العقاد » لن يبقى غير الحرية يا فارسها المغوار .. أنشودة حياتك يتغنى بها الكون كله ... فى البدء كانت الحرية « بلا قيود أو سدود » ... حرية لم تنشدها لذاتها .. وإنما لتفيء بظلالها على الإنسان حياة أرقى وأفضل ..

* ٢١ / ٣ / ١٩٩٢

حلم البيت الصغيـر !

كان طفلا لا يتجاوز عمره سبع سنوات ، عندما ودع والده أفراد أسرته . ظل شهورًا ينتظر عودة الأب الغائب . ولكن الانتظار لم يعد حلما طفوليا ، وإنما أصبح فجيعة .

ذات يوم أعطاه شقيقه الأكبر صحيفة مصرية . وطلب منه أن يقرأ عناوين صفحتها الأولى . وعندما سأله .. هل فهمت ما قرأت .. اعتصره حزن نبيل . لقد استشهد والده المناضل الفلسطينى عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل قرب مدينة القدس . يوم لن ينساه ٩ أبريل ١٩٤٨ .

كان الطفل فيصل لا يزيد عمره آنذاك عن ٨ سنوات . كان يعيش مع أسرته فى القاهرة وفيها تعلم حتى أنهى دراسته الجامعية . وهو يتذكر أنه لم يولد فى وطنه . وإنما ولد فى العراق . فقد أبعدت سلطات الانتداب البريطانى والده لأنه اشترك فى قيادة ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية ضد بريطانيا والصهيونية . وبعد تجواله فى عدد من البلاد العربية استقر به المقام فى مصر . ولكنه غادرها بمفرده إلى فلسطين عام ١٩٤٧ ليقود قوات « الجهاد المقدس » .

« عبد القادر » مات شهيدًا من أجل الوطن . تشيعه الزغاريد إلى قبره المجهول . يقول فيصل : أمى لم تبك لحظة علمها نبأ استشهاد والدى .

ومرت السنين . وعاد فيصل إلى القدس الشرقية عام ١٩٦٤ ليقيم فيها . طاردته سلطات الاحتلال الإسرائيلى . اعتقلته . استمر فى نضاله . أنشا مركزًا للدراسات العربية عام ٨٠ . داهمته قوات الاحتلال عام ٨٨ . واعتقلت فيصل . كانت الانتفاضة مشتعلة . يقول : عندما اعتقلونى كان مشروع .إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة على مكتبى . والآن أعلنت الدولة ويضيف إن معركتى هى كسب الرأى العام الاسرائيلى إلى جانب مبادرة السلام الفلسطينية .

ومن المؤكد أن فيصل قد قطع شوطًا كبيرًا فى معركته . فعندما اعتقلته سلطات إسرائيل منذ أيام قامت الدنيا ولم تقعد إلا عندما أطلق سراحه .

عندما سألوا فيصل عن أحلامه أجاب : إن حلم الوطن أولا ويبقى بعد ذلك حلم خاص .. أن يكون لى بيت صغير بالقرب من القدس أعيش فيه فى سلام مع زوجتى وابنى عبد القادر وابنتى فدوى .

العجوز .. والحجارة !

كان في ريعان صباه . فى بدايات سن الحلم والأمل . ولكنه لم يحدث أقرانه عن أحلامه الخاصة .. أن يكمل دراسته ، أن يتزوج . أن يمتلك سيارة . فالأرجح أنه لم يكن يفكر فى شىء من هذا .. إن حلمه كان أعظم .

اسمه « حاتم السيسى » . ولكن لا أحد يعرف اسمه . رغم إنه الكلمة الأولى فى كتاب الانتفاضة – فهو أول شهدائها . سقط برصاص قوات الاحتلال فى غزة . فى مثل هذا اليوم من سنتين . كان عمره سبعة عشر عاما .

استطعت بصعوبة أن أختزن اسمه فى ذاكرتى ، حتى لا يضيع منى فى زحمة الأسماء والأحداث . ولا أدرى لماذا يذكرنى أحيانًا بمشهد مثير وغريب – فذات صباح قالت سيدة إسرائيلية عجوز فى أسى وغيظ :

– « إننى أشعر بالحنق على النبى موسى . فقد انتقل بنا من مكان إلى آخر حتى استقر فى أرض ليس بها بترول » !!

هذا ما قالته « جولدا مائير » فى زمن الصدمة البترولية الأولى بعد عام ١٩٧٣ . ولو أن العمر امتد بها حتى زمن الانتفاضة .. لكان حنقها قد زاد . فالأرض المحتلة ليس بها بترول ، ولكن حجارتها كثيرة . وقد تسابق كل أطفالها فجأةً ليلعبوا لعبة الحجر .

لم يقذفوا بالحجر إسرائيل فى شوارع الضفة وغزة فقط ، وإنما قذفوها

به فى صحف بريطانيا وفرنسا وأمريكا . يقول هذا دبلوماسى إسرائيلى مخضرم هو « ديفيد كيمحى » .

فى ذلك الوقت كان صحفى أمريكى يتابع أنباء الانتفاضة وقابل فتاة فلسطينية صغيرة اسمها « جمالات » أذهلته بحوارها الذى لم يلقنه لها أحد .

تقول « جمالات » ، التى أصيبت ثلاث مرات فى لعبة الانتفاضة : إن آخر طلقة اسرائيلية أصابتنى كانت عندما اشتركت مع مجموعة من الأطفال فى هجوم بالحجارة على جنود إسرائيليين كانوا يضربون بقسوة طفلاً من جيراننا .

لم تكن « جمالات » تعلم إن حجارة الأطفال زادت من الأزمة الاقتصادية للإسرائيليين وإنهم كانوا يبحثون الغاء عملتهم وإحلال الدولار الأمريكى محلها . ولم تسمع « جمالات » أن نائبة إسرائيلية هى « جيئولا كوهين » اقترحت وضع صورة الرئيس الأمريكى الأسبق « إبراهام لنكولن » على أوراق عملة إسرائيل .

ولم تقرأ « جمالات » هذا الحوار الساخر الذى نشرته صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية :

• ما هى الخطوة القادمة بعد التفكير فى الغاء العملة الإسرائيلية واستخدام الدولار الأمريكى ؟

• أن ننتقل كلنا للعيش فى حى بروكلين .. حى اليهود فى أمريكا .

• ٩ / ١٢ / ١٩٨٩

الغرباء وكلمة السر !

عندما اغتالوه غدرًا ، دفنوا جثمانه سرا . ولم يخفوا سعادتهم لقتل الرجل الذى أحال حياتهم إلى جحيم ، طوال ثلاث سنوات . رصدوا خلالها جائزة مالية كبرى لمن يأتى به حيا أو ميتًا .

كان شابا فى نحو الأربعين من عمره ، عندما ترك أسرته دون كلمة وداع . اختفى عن الأنظار . ثم ظهر وهو يقود الثوار ضد قوات الانتداب والحركة الصهيونية .

حدث ذلك فى شهر يونية عام ١٩٣٦ . كانت الثورة الفلسطينية الكبرى قد بدأت منذ شهرين بحركة عصيان مدنى شامل ، احتجاجًا على تصاعد هجرة اليهود إلى فلسطين ، تحت عباءة الانتداب البريطانى .

كان يطلق على نفسه اسم « المجاهد الصغير » فى سبيل الوطن .وبينما كان نائما ذات ليلة من عام ١٩٣٩ ، حاصروا المكان . واغتالوه . إنه الشهيد « عبد الرحيم الحاج محمد » .

كان لايزال صبيا فى العاشرة من عمره ، عندما رست فى ميناء حيفا فى أغسطس عام ١٨٨٢ سفينة اسمها « أصلان » نزل منها ١٣ رجلاً وامرأة واحدة . لم يدرك الصبى أن هؤلاء الغرباء يحملون فى وجدانهم وعقولهم حلمًا دمويا لاغتيال وطنه !

استوطن الغرباء قرب يافا ، في مستوطنة أطلقوا عليها اسم « ريشون لوسيون » وهي تعني بالعبرية « الأول في صهيون » . فهم من جمعية أحباء صهيون . كانوا بداية موجة الهجرة الصهيونية الأولى إلى فلسطين .

من هذه المستوطنة ، التي تحولت بعد أكثر من مائة عام إلى مدينة يهودية ، خرج إرهابي صهيوني . ارتكب مذبحة وحشية ضد الفلسطينيين يوم الأحد الدامي . هذا ما تؤكده دفاتر التاريخ .

الغرباء منذ جاءوا بحلمهم الدموي حرفتهم الأولى الإرهاب والقتل . هدفهم طمس الوجود الفلسطيني . كبيرهم مناحم بيجين يلقنهم كلمة السر في كتابه « التمرد » . يقول لهم : « أنا أقاتل .. فأنا إذن موجود » . هذه هي ديباجة دستورهم الإرهابي .

الغرباء .. كأسراب الجراد « يهاجرون » إلى الأرض ، هذه الأيام . ما العمل ؟ الأسطورة اليهودية لا تكفي حتى لو كانت رموزها تمنح الأمل . تقول الأسطورة ملاك الغرباء يسير إلى الأمام ، ووجهه إلى الخلف . لا يبصر إلى أين يسير .

لن تخدعنا هذه الأسطورة ، إن لدينا الآن أسطورة الواقع الجديد . أطفال الحجارة يروون ، بالدم ، كلماتها .. التي تضيء ، وسط الغيوم ، دروب المستقبل .

---

* ٢ / ٦ / ١٩٩٠

الرحلة ... الكبرى

كان رجلاً مهيبًا . تجاوز الستين من عمره . كان يمكنه أن يكتفى الكلمة والموعظة الحسنة ليحذر قومه من الخطر الداهم الذى يحدق الجميع . لكنه أدرك أن الكلمة وحدها لا تكفى . جمع نفرًا من أنصاره ى اجتماع سرى فى حيفا . قال لهم : لقد حان وقت الطلقات دفاعًا عن الوطن .

التف الشباب من حوله . باعوا أثاث بيوتهم ، وحلى زوجاتهم لشراء ا يلزمهم من أسلحة . خرجوا معه ليكونوا طلائع أول ثورة فلسطينية سلحة ضد الانتداب البريطانى والحركة الصهونية . استشهد الرجل . بندقيته فى يده .

إنه « عز الدين القسام » بطل ثورة ١٩٣٥ الفلسطينية . التى مهدت ثورة الكبرى فى العام التالى . كان مواطنًا سوريا جاء إلى القاهرة ، هو فى الرابعة عشرة من عمره ، ليتعلم فى الأزهر الشريف . تتلمذ لى دروس الشيخ محمد عبده ، الفقيه المستنير . وتعلم كراهية المستعمر ، هو يرى المشهد الحزين لهزيمة ثورة « أحمد عرابى » .

وعندما عاد إلى سوريا ، كان قد نذر نفسه للدفاع عن الوطن والحرية . نضم إلى حركة مقاومة الاستعمار الفرنسى . أصدروا حكمًا بإعدامه . إلى فلسطين واستقر فى حيفا . فقد كان قدره أن يموت شهيدًا .

فى ذلك الوقت ، كانت الحركة الصهيونية تتحول إلى عاصفة من

الإرهاب المجنون . بزعامة فلاديمير جابوتنسكى . كان يقول لأنصاره : « إن الله أنزل التوراة والسيف على اليهود » ! وفى معبده ترعرعت الأفكار الإرهابية لمناحيم بيجين . واسحق شامير ، وأريل شارون ، ومائير كاهانا ، وغيرهم ..

الحاخام « مائير كاهانا » .. وحركته المسماة « كاخ » دليل فاضح على هذا الإرهاب الصهيونى . فكلمة « كاخ » تعنى بالعبرية : « هكذا » وتحتها شعار مرسوم ليد تمسك بالسيف ، وأخرى بالتوراة . وصيحة كاهانا التى يزأر بها أتباعه : « اطردوا الفلسطينيين . اقتلوهم . اقلعوا عيونهم » !

عندما أصبح الحاخام عضوًا فى برلمان إسرائيل عام ١٩٨٤ ، قال صحفى إسرائيلى هو « يورى أفنيرى » « إن كاهانا لا يتحدث باسمه فقط ، وإنما يتحدث باسم الذين يتربعون على قمة أحزاب إسرائيل . إن الكاهانية أعلى مراحل الصهيونية النازية » .

صباح الأحد الماضى ، خرج إرهابى إسرائيلى من تحت عباءة كاهانا . أطلق مدفعه الرشاش على العمال الفلسطينيين . مذبحة مروعة . هرب القاتل لفترة قبل اعتقاله عندما سأله شقيقه : أين كنت ؟ رد بزهو مخيف : « كنت فى رحلة صيد فى سوق العبيد » !

يا شيخنا الجليل .. عز الدين القسام .. أحفادك أطفال ثورة الحجارة ، لم تروعهم المذبحة . خرجوا يتحدون القتلة . إنهم فى رحلة استشهاد كبرى . لن يعودوا إلى أحضان أمهاتهم الثكالى .. حتى يعود الوطن .

---

* ٢٦ / ٥ / ١٩٩٠

طائر الوطن !

رحلته كانت شاقة ، فوق سطح سفينة عتيقة قضى وقتًا طويلاً ، عندما رست به فى يافا بفلسطين عام ١٩٠٦ ، انتابته هواجس غامضة ، وفرحة غامرة ، ليلتها لم ينم ، رغم إرهاق الرحلة ، ظل مؤرقًا ، كان يطوى بين جوانحه سرا لا يبوح به إلا لأقرانه ، ممن على شاكلته . سره كان « مؤامرة » .. أراد بها أن يطعن التاريخ ، حتى يسيل دم شعب بأكمله ، ويمزق الجغرافيا ، لينفى هذا الشعب تحت ركامها !

عندما كان فى السادسة عشرة من عمره كوَّنَ جماعة غريبة أسماها « عزرا » .. وهو اسم مؤسس الهيكل اليهودى الثانى .. فضح توجهه واتجاهه ، صهيونى هو ، يريد هدم المسجد الأقصى ، ليقيم على أنقاضه الهيكل من جديد !! قالها يومًا للجميع عندما حملته المؤامرة الكبرى إلى كرسى السلطة فى إسرائيل . قال : « لا معنى للقدس بدون إقامة الهيكل مكان الأقصى » !!

إنه « ديفيد بن جوريون » ، أول رئيس لوزراء إسرائيل ، من بين طيات أفكاره المتعصبة .. تخرج حركات التطرف الدينى اليهودية .. « كاخ » .. « كتلة الإيمان » .. « أمناء جبل الهيكل » كلهم إرهابيون .. وبرابرة .

خرجوا صباح الاثنين الماضى ، يريدون وضع حجر أساس الهيكل ، كان معهم ووراءهم جنود إسرائيل ، تصدى لهم أبناء الأقصى ، وقعت المذبحة المروعة فى ساحته ، فرضوا الحصار على كل الأبناء .

شيخ طاعن فى السن ، يحمل فوق كاهله ثمانين عامًا ، تئن عظامه الواهية تحت وطأتها ، خرج فى شجاعة نادرة ، تحدى الحصار ، توجه للصلاة مع الأبناء فى الأقصى . أطلقوا فى وجهه قنابلهم المسيلة للدموع ، لم يحتمل الشيخ ، سقط مغشيًا عليه .

إنه الشيخ « سعد الدين العلمى » .. مفتى القدس ولد على أرضها بعد خمس سنوات ؛ من مجىء « بن جوريون » إلى يافا قادمًا من بولندا ، القدر كان يدخرك « يا شيخ سعد » لهذا اليوم الحزين ، قبلها .. حاولوا اغتيالك . حرقوا سيارتك ، أشعلوا النيران فى بيتك ، اعتدى عليك جنودهم بالضرب ، حاخامهم المتطرف الإرهابى « مائير كاهانا » يترصد خطاك ، وهو يردد موعظته الهمجية : « اقتلوا العرب ، افقأوا عيونهم » !

عشية مذبحة الأقصى نعق البوم الصهيونى .. « شامير » يقول للمتطرفين : « سوف نستمر فى بناء المستوطنات ، وإقامة حى يهودى جديد فى القدس » .. تدثر بكلامه هذا « أمناء جبل الهيكل » .. نسل أفكار بن جوريون .. وهم يتأهبون لاقتحام الأقصى ..

الشهداء فى كل مكان ..الأمهات الثكالى يزغردن .. لا بكاء على الشهيد .. طائر الاستشهاد يغرد بأنشودة الوطن العائد .. طوبى للشهداء .. ولمن يرمى الحجر .

• ١٣ / ١٠ / ١٩٩٠

الهجرة .. من دائرة الخوف !

عندما بلغ السادسة من عمره ، ماتت أمه . وتولت خالته تنشئته لمدة ثلاث سنوات . كانت سيدة رحيمة ومثقفة . من خلال عيونها رأى الدنيا واسعة ورحبة . عندما بلغ سن الشباب كان وعيه بالواقع قد اكتمل . تمرد عليه . امتشق قلمه ليحارب السلطان الجائر .

كان سوريا ، عاش فى مدينة حلب . وانتمى لأسرة عريقة وموسرة .كان يمكنه أن يعيش حياة ناعمة . هانئة . ولكنه اختار أن ينزل إلى شوارع المدينة . قال إن استنهاض همم الناس هو مهمتى ، ومهنتى . أصدر صحيفة « الشهباء » . أزعجت مقالاته السلطان العثمانى . فأغلقها بعد صدور ١٥ عددًا . لم ييأس . أصدر صحيفة « الاعتدال » فلقيت ذات المصير .

أصبح رجلاً طريدًا ، ومطاردًا . لكن أرض الله واسعة . هاجر إلى مصر . ونشر فى صحفها سلسلة مقالات عاصفة . جمعها فى كتابه « طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد » . منذ نشره عام ١٩٠٠ فى القاهرة ، وهو ينير دروب الحرية . مصباح لا ينطفىء سراجه ، رغم عواصف القهر العاتية .

إنه « عبد الرحمن الكواكبى » مفكرنا العربى الكبير . كرس حياته لمحاربة السلطان العثمانى الجائر . كان يقول : « أصل الداء هو الاستبداد ، ودواؤه الشورى الدستورية » .. الديمقراطية بلغة العصر .

ونبه إلى « أن الاستبداد يضعف حب الوطن . ويدفع الناس إلى الرغبة فى الانتقال منه » .. والهجرة خارج حدوده .

المهاجرون .. كثيرون ، هذه الأيام .. يا شيخنا العظيم « الكواكبى » لو أن العمر امتد بك لرأيت العجب العجاب . ولانشرح صدرك . الاستبداد ذليل . منكس الرأس . يحارب معاركه الأخيرة فى خندق سلطة الفرد المطلق .

فى بلد اسمه « ألبانيا » عاش أهله البسطاء فى خوف مروع .. خلف أسوار الزمن والدنيا . سيطر على أقدارهم رجل مستبد اسمه « أنور خوجه » . بشرهم بالمن والسلوى ! وبالفردوس المفقود ! لم يحصدوا سوى القهر ، وذل الصمت .

شاب كان يجلس ذات يوم على مقهى . جرؤ على الكلام مع صديقين . قال إن الأحوال ليست على ما يرام ! لم ير نور الشمس سنوات . اعتقلوه . الكلام جريمة ! والسفر إلى الخارج « خيانة » !

مات « أنور خوجه » عام ١٩٨٥ . بعد حكم جائر استمر أكثر من ٤٠ عامًا . فى ذلك العام السعيد ، دخل رجل مستنير وشجاع اسمه « جورباتشوف » قصر الكرملين . غير الدنيا من حوله . انهار سور برلين فى ٩ نوفمبر ١٩٨٩ . سقط الاستبداد . بدأ عالم جديد أضواؤه باهرة ، ومبهرة .

لم تفلت من إعصار الحرية فى أوربا سوى « ألبانيا » حاكمها بعد خوجه « رامز عاليا » يتحسس طريقه بحذر . خطوة مترددة للأمام ،

وخطوتان للخلف . امرأة شرسة من الزمن القديم تعترض طريقه . إنها قرينة « أنور خوجه » ، تتزعم عصابة الحرس القديم .

عندما هبت رياح الحرية على « ألبانيا » منذ أيام ، هرع الآلاف إلى السفارات الأجنبية . هاجروا من دائرة القهر والخوف ، والصمت . الوطن ليس جغرافيا فقط ، إنه أساسًا تاريخ تبدأ سطوره بكلمة الحرية .

أيها المفكر الكبير « عبد الرحمن الكواكبى » .. فى طليعة موكب الحرية .. مكانك » ، ومكانتك . صدقت نبوءتك . قلت وأنت تحارب الاستبداد ، وتغنى للحرية : « هذه صيحة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح » ، فقد تذهب غدًا بالأوتاد » .

* ٢١ / ٧ / ١٩٩٠

أحـلام .. اليقظـة !

كان فى مقتبل عمره .. عندما دبت الحركة فى قريته الهادئة ذات يوم .. قدم إليها نفر من كبار القوم .. طرقوا باب داره .. هددوا والده بالقتل إذا لم يبرح فراش مرضه ليتولى أمرهم ويقود مسيرتهم .. لم يستطع الرجل العجوز أن يجادلهم أو يحاورهم .. اكتفى بأن قال لهم فى صوت واهن .. إليكم ابنى فهو أقدر منى بشبابه وقوة عزيمته .. كانت المفاجأة أن وافقوا بالإجماع .

امتطى الشاب صهوة حصانه .. وأشهر حسامه .. ورفع راية الوطن خفاقة يفقأ بها عيون الغزاة وقلوبهم .. لم يسقط سيفه من قبضة يده طوال سنوات ست من النضال .. لكن الغزاة تكاثروا عليه بأسلحتهم الحديثة .. استسلم حتى ينقذ البلاد من مذبحة وحشية .. نفوه إلى عاصمتهم باريس ثم سمحوا له بعد خمس سنوات بالسفر إلى دمشق وهناك وافاه الأجل عام ١٨٨٢ .

إنه « عبد القادر الجزائرى » .. الأب الروحى للجزائر الحديثة والمعاصرة .. سلم راية الوطن والحلم للأبناء والأحفاد قبل رحلة المنفى الأجبارى .. لم يخذلوه .. صنعوا ملحمة الحرية بدماء مليون شهيد .. خاضوا أشرس المعارك مع مستعمر يعاند الزمن والتاريخ .. أبواقه كانت تقول صباح مساء .. الجزائر فرنسية !! أراد بحد سيفه المسموم إزهاق الهوية .. لكن الوطنية ترياق .. صمدوا رغم الهول لحرب الإبادة

الهمجية .. وتصدوا لمحاولة إفناء حضارتهم .. حتى رفعوا علم الاستقلال بعد ١٣٢ عامًا من الاستعمار الفرنسى .

رحلة الجهاد الأكبر بدأت .. لاستشراف تخوم الفردوس الأرضى .. لا عائق بعد اليوم .. الثورة طهرت الأرض من الأحقاد .. اقتلعت أعشاب الفردية .. الكل فى واحد .. هكذا كنا فى زمن الحرب والموت .. أحلام اليقظة النورانية فى قلب الإنسان يداهمها صخب الحزب الواحد وشعارات الجدران .. الثورة الآن غدت دولة .. حذار انتباه !!

« هوارى بومدين » بطل كان يقود الثورة فى وهران لكنه فى زمن الدولة اقتحم بدبابته القصر .. واعتلى وحده كرسى السلطة .. هذا ما حدث عام ١٩٦٥ .. لم يبرح أعتاب القصر إلا محمولاً فوق الأعناق .. مات عام ١٩٧٩ .. فى ذاك الوقت كان شبح الأزمة يدق الأبواب .. النفط عماد الثروة تتدهور أسعاره .. حلم المشروع الوطنى يترنح .

« الشاذلى بن جديد » .. يدخل بوابات القصر – لكنه كان حذرًا وفطنًا أدرك أن زمن الأسطورة قد ولى .. الواقع قد يمهل ولكن السخط لا يهمل .. مرجل الإحباط تفجر خلال عقد الثمانينيات . أنات الخلق تتحول إلى صرخات ومظاهرات تجتاح الطرقات .. يخرج الرجل من تحت عباءة الحزب الواحد .. يسمح بالتعددية عام ١٩٨٩ .

رجال الحزب الواحد يثيرون الشارع بمواعظ الحلم الضائع .. كان المشهد فاجعًا .. رجل منهم قال عام ١٩٩٠ إن أكثر من ٢٦ مليار

دولار ضاعت سدى .. دفعت رشاوى وعمولات .. إنه رئيس الوزراء الأسبق عبد الحميد الإبراهيمى .

الفجيعة زادت .. عندما تبادل سيد أحمد غزالى رئيس الوزراء مع مولود حمروش رئيس الوزراء السابق الاتهامات العلنية حول بيع رصيد البلاد من الذهب وبيع آبار بتروله !! لم يبق إلا حصاد الإحباط المر من الزمن القديم .. أجواء اليأس تفرخ نتائج الجولة الأولى من الانتخابات التشريعية التى جرت منذ أيام ..

« عبد القادر الجزائرى » .. الاقتصاد جنى هذا العصر خرج من القمقم .. رغم الأحزان وطريق آلام القادم .. لا تغرس راية الوطن إلا فى قلب العالم .. لا فوق الروابى القديمة .

* ٤ / ١ / ١٩٩٢

رجـال .. فـوق الجسر !

حياته لم تكن سهلة ولكنه كان عنيدًا وطموحًا . وكان عناد أسرته أعظم . تكبد والده عناء جما كى يعول عائلته . أما أمه فقد باعت حليها حتى يتعلم . وذات يوم شق طريقه من طهطا إلى القاهرة . وحط رحاله على أبواب أزهرها الشريف .

بعد خمس سنوات ، اختاروه لنجابته . ورجاحة عقله شيخًا يجلس إلى أحد أعمدة الأزهر ليعلم طلابه . كان هذا غاية المراد من رب العباد . غير أن الأقدار كانت تدخر الفتى لدور حضارى عظيم . فبعد تعيينه واعظًا بالجيش ، اختاروه إمامًا لبعثة تعليمية مصرية فى فرنسا .

كان الفتى رفاعة الطهطاوى فى الخامسة والعشرين من عمره عندما وصل إلى باريس . حلقت روحه فى أجواء حضارتها وفنونها .نهل من علومها الحكيمة . هكذا قال لنا فى كتابه « تخليص الابريز ، فى تلخيص باريز » .

منذ ذلك اليوم الذى يشرق نوره حتى الآن ورفاعة يحمل راية النهضة الفكرية الحديثة . من تحت عباءته يخرج المفكرون والكتاب والفنانون الذين يشيعون الضياء والمعرفة فى بر مصر .

فوق جسر التواصل الحضارى بين الشرق والغرب تطير عصافير الشرق لتغرد على الأشجار السامقة للفن والحضارة فى باريس . لم تغمض العين أبدًا عن مدينة النور ، حتى وقت الجفوة ، وزمن الخصام السياسى .

تشاء الأقدار أن ينهى طفل فرنسى ولد بعد حوالى ثلاثين عامًا من موت رفاعة ، هذه الجفوة ، وذاك الخصام ، إنه شارل ديجول الذى تحتفل فرنسا الآن بالذكرى المائة لمولده .

ديجول .. أسطورة وطنية . بدأت سطورها وسط عاصفة الحرب العالمية الثانية . كان فى مهمة فى لندن .. وجد نفسه » ، ذات صباح حزين ، ضابطًا بدون قيادة فى جيش هزمه غزاة النازية .

أبدًا .. باريس لم تسقط . هكذا قال الجنرال ديجول . هز أبناء وطنه من الأعماق نداء المقاومة الذى أطلقه يوم ١٨ يونية عام ١٩٤٠ . تحررت باريس بعد ٤ سنوات .

ديجول مثلما حرر فرنسا من الغزاة ، حررها من عار الاستعمار . قال للمستوطنين « لا » الجزائر ليست فرنسية . إنها جزائرية .الزعيم الافريقى سيكوتورى قال « لا » فى وجه الجنرال وحصل على استقلال غينيا .

أسطورة الجنرال لم تكن تبهرنا كثيرًا ، كان يغشاها مساندة فرنسا لإسرائيل . لكنه ذات يوم حث الخطى على جسر « رفاعة » الحضارى الواصل بين باريس والقاهرة . أدان عدوان ١٩٦٧ . ومنع تصدير

الأسلحة لإسرائيل . لم يأبه بالحملة الصهيونية الهوجاء ، التى لا تزال تطارده حتى بعد موته .

يا جدنا العظيم رفاعة .. الجنرال المنتصر من فوق جسر الوطنية والحضارة .. يقرئك السلام .

* ٢٣ / ٦ / ١٩٩٠

٢

دموع الفيلسوف والمشهد الأخير .. !

دموع .. الفيلسوف !

كان يحب زوجته . لا يطيق فراقها . وزاد حبه لها عندما تحملت فى رضا حياته العاصفة . وعندما ماتت لم يحتمل الدنيا بعدها سوى ١٨ شهرًا . ودفن فى لندن . إنه « كارل ماركس » أحد الفلاسفة الكبار .

أحفاد هذا الفيلسوف ، الذين خرجوا من بين دفتى كتبه ، ثارت عليهم شعوبهم – لأنهم وضعوا الكتب على الرف . وتحولوا إلى كهنة صغار فى معبد السلطة المطلقة ، بكل إغراءاتها المفسدة .

عندما اشتدت رياح الثورة ، إنهار سور برلين تحت وطأة أقدام عشاق الحرية . كانوا يقولون : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » وهو خبز لا يحصلون عليه إلا بعد الوقوف فى طوابير طويلة .

فى هذا الوقت لم تنس سيدة ألمانية مستنيرة أن ماركس هو أولا مفكر ألمانى كبير . طالبت وهى نائبة رئيس برلمان ألمانيا الغربية حكومتها أن تتبرع لتجديد مقبرته فى لندن . عندما وافق هيلموت كول المستشار

الألمانى الغربى المحافظ على الاقتراح أصابت الدهشة الكثيرين . لا مبرر للدهشة : إن البلاد المتحضرة لا تفرق بين أبنائها حتى لو كان بينهم مشاغب على الورق وأن شغبه كان فكرًا وفلسفة .. وليس لغوا .

حدث هذا بعد أن سقط كاهن السلطة المطلقة لمدة ١٧ عاما فى ألمانيا الشرقية . أسقطته رياح التغيير العاصفة من فوق عرشه . تردد أنه سيقضى بقية عمره فى ديره . ولكنه دخل المستشفى لإجراء عملية جراحية . أخرجوه قبل أن يتم فترة نقاهته . لأن مرضى آخرين فى حاجة ماسة إلى سريره بالمستشفى .

لم يكد اريك هونيكر (٧٧ عاما) يغادر المستشفى حتى ألقوا القبض عليه لمحاكمته بتهمة الفساد والخيانة . أصدقاؤه يقولون إنه لا يدرك سبب موجة الغضب التى تجتاح البلاد بعد كشف ملف تجاوزات نظامه . تمامًا مثلما كان شاوشيسكو ديكتاتور رومانيا وزوجته ايلينا لا يدركان أنهما فى طريقهما للإعدام ، بعد محاكمتهما بتهمة إبادة الشعب .

هونيكر كان ذات يوم شابا بريئًا . ناضل ضد النازية فى بلاده . أعتقل طوال فترة الحرب الثانية . لم ير النور إلا عندما حررته القوات السوفيتية بعد هزيمة هتلر والنازية . واستطاع أن يصل إلى قمة السلطة فى ألمانيا الشرقية عام ١٩٧٢ . عندئذٍ بدأ رحلة السقوط والتخلى عن البراءة فى معبد السلطة المطلقة .

إن الفيلسوف لم ينجب أحفادًا !

---

* ٣ / ٢ / ١٩٩٠

محاكمة الموتى !!

طارت أمه من الفرحة عندما ولدته . فقد مات لها طفلان فى سن صغيرة . كانت سيدة بسيطة . تعمل فى بيوت الأغنياء لمساعدة زوجها الإسكافى ، صانع الأحذية . فقراء يرهقهم البحث عن لقمة العيش . وزاد الطين بلة أن الأب كان سكيرًا . واشتدت أحزان الأم عندما خذلها ابنها .. ولم يحقق حلم حياتها : أن يصبح رجل دين .

هذا الابن الذى خنق حلم أمه . ثم لوث حلم أمته ، هو جوزيف ستالين . حكم الاتحاد السوفيتى ٢٩ عاما . كان خلالها الحاكم الفرد ، كلمته هى الأخيرة فى كل شىء من مشكلات اللغة وحتى البحوث العلمية . رغم أنه لم يكمل تعليمه !

عندما جلس على عرش السلطة أعدم كل معارضيه . ومحاكمة التطهير الكبرى عام ١٩٣٦ تشهد على ذلك . حتى زوجته الجميلة « ناديشكا » عندما أفزعتها جرائمه السياسية ، ماتت ذات ليلة فى ظروف غامضة . يقولون : إنه دس لها السم فى الشراب !

لم تمر ثمانى سنوات ، حتى ارتكب جريمة مروعة . لم يكشف عنها الستار بالكامل إلا منذ أيام عندما اعتذر الاتحاد السوفيتى رسميا لبولندا عن قتل ستالين وبوليسه السرى لـ ١٥ ألف ضابط بولندى عام ١٩٤٠ . كانوا قد وقعوا فى أسر السوفيت .

مأساتهم كانت مفجعة . لغز استمرت طلاسمه نصف قرن من الزمن الرديء . اختفوا كأن الأرض انشقت وابتلعتهم . قال لمن سأله عنهم : لقد هربوا ؟ . كان يكذب . لم يجرؤ أحد ، فى عهد حكم الفرد ، أن يستبد به الجنون ،يصرخ فى وجه القاتل بالحقيقة .

جورباتشوف قال الحقيقة أخيرا . كان يريد أن يغسل يديه من دم الأبرياء الذين اغتالهم ستالين فى غابة قاطين منذ ٥٠ عاما . قال .. لم يكونوا وحدهم كان بجوارهم أبناء من الشعب السوفيتى !

القتلة . لابد من محاكمتهم . هكذا يقولون فى بولندا . إن مجرد الاعتذار عن هذه الجريمة الكبرى لا يكفى . لا يضمد جراح التاريخ .

التاريخ .. جراحه كثيرة . كثيرة . لقد أفلت ستالين ورفاقه القتلة من العقاب . ففى زمن الديكتاتورية .. لا تنصب محاكم التاريخ سوى للموتى !

* ١١ / ٤ / ١٩٩٠

الرسالة الأخيرة

ذات صباح عندما طرقوا باب غرفة نومه . لم يرد .. وجدوه منتحرًا . كانت إلى جانبه رسالته الأخيرة : « إلى الجميع ، إنى أموت . لا أتهم أحدا . ولتنعموا بالسعادة ! هكذا انتحر الشاعر الروسى العظيم « مايكو فسكى » . كان الجميع ينتقدونه بعنف لأنه يتغنى للحب ، رغم إنه كان يهتف أحيانًا للمصانع الجديدة .

بعد سنة واحدة من هذا المشهد الحزين ، ولد الطفل ميخائيل جورباتشوف فى مارس ١٩٣١ فى أسرة من الفلاحين الفقراء . تولى جده توجيهه وتعليمه . جعله يقرأ أشعار « بوشكين » أعظم شعراء روسيا ، ورواية ليرمنتوف « بطل من زماننا » . هكذا علمه جده الشاعرية والحلم . وهما طوق النجاة للإفلات من الالتصاق بالواقع ، وبداية للتمرد عليه . ويبدو أن الفتى ظل محتفظا فى أعماقه ووجدانه بما علمه جده ، رغم أنه مشى طويلا فى دروب الواقع الصارم ، والتزم به كثيرًا . حتى أصبح زعيمًا للاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٥ .

فى حياته يومان هامان : يوم زواجه من زميلته الجامعية الجميلة « رئيسا » ، ويوم موت زعيم بلاده ستالين بعد حكم استمر نحو ثلاثين عامًا . ولم تمض ثلاث سنوات على موته حتى بدأت حملة انتقاده . كان خروشوف هو الأب الروحى لحركة الإصلاح . وهى الحركة التى حوصرت منذ البداية .

الواقع أصبح عبئًا ثقيلاً . جورباتشوف قرر أن يكون رجل الأقدار المتصادمة . قال : « أيها الناس تكلموا بصراحة . وتعالوا نعد البناء » . وعندما تكلم الناس بعد صمت طويل دام ٧٠ عامًا دوت الكلمات ، فهزت أركان الواقع . تناثرت أحجاره فى كل مكان : ثورة أحيانًا ، وفوضى أحيانا أخرى .

لم يتراجع . ذهب إلى عرين الأسد فى ليتوانيا . مشى فى شوارعها الغاضبة . لم يسمع كلماته أحد . يقول مواطن هناك : « لقد جاء جورباتشوف بعد أن تحرك القطار » . لم تمض ساعات حتى بدأت الحرب الأهلية فى مناطق أخرى . إن العقد السوفيتى مهدد بأن ينفرط .

زوجته « رئيسا » كانت بجانبه ، عندما تحرك القطار دون أن يلحقا به . كانا وحيدين .

---

* ٢٠ / ١ / ١٩٩٠

الفارس .. والعجوز !

ذات ليلة شتوية .. تسلل رجل عجوز من دفء فراشه الوثير وهرب من ضيعته .. كان قد ضاق ذرعًا بالواقع من حوله .. وقد عثروا عليه بعد أربعة أيام فى محطة سكة حديد صغيرة .. وهناك على أحد مقاعدها الخشبية لفظ أنفاسه الأخيرة .. إنه الروائى الروسى العظيم « تولستوى » الذى هز وجدان الدنيا بروائعه .. الحرب والسلام وأنا كارنينا والبعث .. وأدهش خلق الله بتمرده الجسور على أفكار زمانه وتقاليده .. فهو سليل أسرة غنية إلا أنه أحب الناس البسطاء .. ملح الأرض .. وتعلم منهم الحكمة ..

« تولستوى » .. ببصيرته الثاقبة وصفاء روحه .. لم يجدف بقارب حياته فوق تيار الأمر الواقع .. لو أنه فعل ذلك لعاش حياة هانئة مترعة بالسعادة مع زوجته صوفيا وأولاده .. لكنه كان يبحث عن الحقيقة والعدل .. كان يطمح إلى تغيير الدنيا .. فكابد القلق واعتصرته الهموم .

كان شجاعًا وعظيمًا .. حياته غدت سراجًا منيرًا لكوكبة من أنبل أبناء الدنيا .. من بين صفحات رواياته وكتبه خرج غاندى ونهرو وكثيرون غيرهما من فرسان هذا الزمان .. لعل آخرهم جورباتشوف عندما تمرد على الأفكار القديمة .. كان بينه وبين تولستوى حب قديم كلاهما عندما كان صبيا عشق أشعار بوشكين شاعر روسيا الملهم .

جورباتشوف .. عندما بدأ عام ١٩٨٥ مسيرة التمرد كان فوق قمة السلطة .. كان يعلم أن الأمر ليس مجرد رحلة لاقتناص أخطاء الماضى وإطلاق سراح المستقبل .. كان يدرك أن النية الحسنة وحدها لا تكفى سندًا فى صراعات السلطة .. لو أنه آثر السلامة لبقى امبراطورًا فوق عرش الكرملين حتى تحين ساعته ! لكنه خاطر بالخروج من وراء الأسوار العالية .. وبشر بزمن الحرية .. كان حالمًا عظيمًا .. لكن مشروعه الفكرى لم يكن بناؤه قد اكتمل .. لذلك كان يخطو خطوة باهرة للأمام وخطوة مرتبكة إلى الخلف حتى تعثرت خطاه فى تيه القوميات البازغة .. دعوته للحرية أنبتت أعلامها !!

تكاثفت الاعلام من حوله .. تراجع إلى الخلف .. ارتمى إلا قليلاً فى أحضان الحرس القديم .. انفض رفاق الزمن الجديد .. كان وحيدًا عندما قرر أباطرة الماضى أهدار دمه فى انقلابهم الفاشل فى أغسطس لكن طوق نجاة « يلتسين » أنقذه .. والجماهير الظامئة للأمنيات النبيلة تقاطرت .. احتشدت فى الشوارع .. وقهرت دبابات القياصرة الجدد .

عندما عاد إلى الكرملين أغلق أبوابه من ورائه .. انكب على تأليف كتاب عن الانقلاب الفاشل .. أضاع الفرصة الذهبية .. لم يطرق حديد زمنه الجديد وهو ساخن .. لم يركب جواد أمنيات جماهير أغسطس .. ليكمل بناء مشروعه بلا تردد .. اكتفى بأحاديث يطلب فيها من الآخرين العون والمساعدة لدرء مخاطر المجاعة .. إمبراطورية كبرى تتسول !! بينما تمتلك كل عناصر القوة ومقومات الحياة الكريمة .

خطأ وخطيئة .. اختار جورباتشوف فى لحظة ضعف أن يخرج من مجرى التاريخ .. فأجهزت عليه تخوم الجغرافيا .. قرر رؤساء الجمهوريات الجديدة إعدام الاتحاد السوفيتى القديم وتنكيس علمه إلى الأبد .

« تولستوى » .. بلادك تبدأ رحلة محفوفة بالمخاطر والأهوال .. عليها أن تسلك دروبًا وعرة قبل أن تهدأ العواصف من حولها .. أما حفيدك الفارس النبيل فلن تكون فى صحبته وهو يغادر الكرملين سوى طيور الحرية لأنها لا تعانى برد الشتاء ولا نقص الطعام !

* ٢١ / ١٢ / ١٩٩١

المشهد .. الأخير !

سنوات طفولته الأولى كانت تفيض بالأحزان .. مات أبوه قبل مولده وتعثرت خطاه فى دروب الدنيا .. كان من فقراء القوم . لكن أمه كانت عنيدة .. أمسكت بيده وهو يمتشق سيف خياله .. وهو يعبر على جواد طموحه آلاف الصفحات قارئًا لمؤلفات المبدعين الكبار .. عرف طريقه .. الدنيا ليست رحلة سهلة وإنما معركة نبيلة عليه أن يبارز فى شوارعها بالكلمات جبروت الطغاة .

عندما بلغ السابعة والعشرين من عمره .. اعتقلوه ذات صباح .. أرسلوه إلى معسكرات العمل ليقضى فيها أحد عشر عامًا .. إنه « الكسندر سولجنستين أعظم الأدباء المعاصرين فى الاتحاد السوفيتى القديم » كشف فى ثلاثيته الرائعة والمفجعة أرخبيل الجولاج وقائع زمن الرعب فى عهد الطاغية ستالين .. عندما أطلقوا سراحه لم يهرب إلى سراديب ذاته .. وإنما شهر قلمه فى وجه الطغيان .. ضاق به النظام ذرعًا .. بينما منحه العالم جائزة نوبل للأدب عام ١٩٧٠ .. ولذلك طردوه من وطنه .. قالوا إنه خائن فقد طالب بالحرية والديمقراطية وألا يبقى من الإمبراطورية سوى روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء قلب الأمة السلافية .. والجمهورية الفاضلة الجديدة ! .

عاش فى ظلال هذا الحلم فى زمن المنفى .. إلى أن استيقظ ذات

صباح فزعًا .. لقد انهار الحلم وتحطم .. أوكرانيا شقت عصا الطاعة على أفكاره .. رفرف علم استقلالها فوق رواييها .. مات الاتحاد السوفيتى .

الأحزان تغمر قلب الكاتب العجوز وهو يخط سطور روايته الأخيرة « العجلة الحمراء » .. لا يزال قابعًا فى منفاه .. كان يمنى النفس بالعودة إلى أرض الوطن .. لكن فى أى مطار تهبط طائرته ؟ جمهوريته الفاضلة تمزقت أوصالها قبل أن يشيد فيها حجرًا .. وشتاء هذا العام سماؤه ملبدة بغيوم كثيفة من التعاسة .. وعواصفه الهوجاء لن تمطر سوى الهموم .

تقترب العاصفة من أسوار الكرملين .. لكن جورباتشوف يردد تعويذة قديمة علها تنقذه من الرياح الصاخبة .. « يا قوم احذروا الكارثة .. إذا تفتت الاتحاد القديم » .. لا يهتم أحد بما يقول .. فهم واقفون .. واجمون .. منذ ساعات فى طوابير الخبز الطويلة رئيس أوكرانيا يقول له : يا سيدى أنت تغرق فى أحلام اليقظة .. الاتحاد السوفيتى قد مات « ولا عزاء فى الكرملين » !

أيها الكاتب الكبير .. جورباتشوف حقق بجسارة كثيرًا من رؤاك وأحلامك عن الحرية وهو يدخل الآن ردهات التاريخ وعلى صدره وسام الإصلاح والديمقراطية وفى يده معول هدم الإمبراطورية وهو لا يزال فوق خشبة المسرح ... ولكن لابد من إسدال الستار على هذا المشهد الأخير ..

* ٢٧ / ١٢ / ١٩٩١

سونيا .. والأمل !

عندما بلغ السادسة عشرة من عمره .. كان عليه أن يمشى فى دروب الدنيا الوعرة وحده ... أبوه كان من فقراء الناس يؤرقه توفير قوت الأبناء الستة وزوجته .. عندما أفلست تجارته اضطر إلى الهرب من قريته مع أفراد أسرته .. حتى لا يلقون به فى السجن بسبب ديونه .. كابد الفتى تلك اللحظة المترعة بالأسى والحزن ... لكنه كان عنيدًا . فلم يغرق فى دوامتها الموحشة .. سبح بإرادة خارقة ضد تيار التعاسة .. حتى وصل ذات يوم إلى شاطىء آمن قبل أن يختطفه ملاك الموت وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ..

تجربة حياته الفظة .. لم تفرخ فى وجدانه الغلظة ولا ظلمات الأحقاد .. انبثقت فى أعماقه شفافية تحنو على الناس ... وبارقة أمل لا تنطفىء فى حياة أفضل .. تمسح يومًا دموع سونيا والخال الطيب .. فقد ظلا يعملان طوال خمسة وعشرين عامًا فى مزرعة الأسرة حتى يوفرا حياة ناعمة وهانئة للاستاذ قريبهما الذى يعيش فى المدينة .. عندما أحيل الأستاذ على المعاش .. عاد ليعيش معهما فى المزرعة .. عندئذ اكتشفا أنهما كانا يحرثان فى البحر .. وأنهما أهدرا حياتهما عبثًا .. الأستاذ كان شخصًا تافهًا مغرورًا وأحمق .

هذا هو عالم « أنطون تشيخوف » .. الكاتب الروسى المبدع ... سيد القصة القصيرة فى الدنيا كلها .. ومؤلف مسرحية « الخال فانيا »

وغيرها .. ظلال هذا العالم الملبد بغيوم الأحزان والأشجان يخيم على روسيا الآن .. خرجت بعد سبعين عامًا أو يزيد من تحت العباءة الثقيلة لشعارات الخديعة والحلم الضائع .. لتطاردها هواجس الجنة الجديدة الموعودة .. دونها طريق طويل من الآلام ..

الكل يتربص الآن .. فالموقف لم يحسم بعد .. يلتسين يمشى فى ردهات قصر الكرملين .. يحذر من انقلاب قادم .. تحاصره نذر الفوضى والسخط .. كبار أعوانه ينفضون بسرعة من حوله .. نائبه يقفز من قاربه وهو يقول : « إنهم يشنون حرب إبادة اقتصادية ضد الشعب الروسى » .

تتجمع فى الشوارع الخلفية الآن قوى جديدة مغامرة .. بعضها يتشح بعباءة الفاشية .. ويتخفى البعض الآخر بقناع النعرة القومية .. يتأهبان لاقتحام أبواب الكرملين خلف دبابات الجنرالات .. الشيوعيون الجدد تظاهروا بالآلاف .. يطالبون بعودة الإمبراطورية .. زعيم الاتجاه الفاشى لا يتجمل يلوح بدانة المدفع وحد السيف لاستعادة الحدود القديمة .

تشيخوف .. أوراق الأحزان اليابسة تغمر الشوارع والمدن .. تشيع الكآبة .. تحاصر سونيا والخال الطيب رمزى النبل والحكمة والأحباط .. لا مهرب لهما اليوم من الجور سوى بأن تضيء لهما قنديلك .. كن حذرًا حتى لا تطفيء عواصف الظلمات الضوء .. والأمل .

---

* ٧ / ٣ / ١٩٩٢

٣

شموع الحرية وحكمة «السوبر ماركت» !

شموع الحرية

قصصه غريبة جدًا . فقد افتقد فى طفولته الحزينة حنان الأب . وضاع منه الحب فى شبابه . واعتصرته رحلة الحياة فمات بمرض السل فى الأربعين من عمره . وكانت وصيته الوحيدة .. أن يحرقوا كل ما كتب من قصص وروايات .

هذا هو « فرانز كافكا » الذى عاش فى براج منذ مولده وحتى وفاته . ولم يمتد به العمر ليشهد تولى الحزب الشيوعى السلطة فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٨ . ومن المرجح أنه لم يكن فى وسعه أن يتصور بعين خياله الروائى أن تعترض الدبابات القادمة من موسكو نسمات الحرية السياسية التى هبت على براج على نحو ما حدث فى الواقع الذى يفوق الخيال !

ففى فجر ليلة من ليالى أغسطس ١٩٦٨ اقتحمت القوات السوفيتية براج . واعتقلت زعماءها . ونفتهم إلى موسكو . وكان فى مقدمتهم

الكسندر دوبشيك زعيم الحزب الشيوعى وبطل « ربيع براج » الذى ألغى الرقابة على الصحف . وسمح بحرية التعبير فى كل أجهزة الإعلام . وبدأ سلسلة من الإصلاحات السياسية ذات الطابع الليبرالى .

تلك كانت جريمته .

ولكن السوفيت لم يفلحوا فى إقامة حكومة دمية يحركون خيوطها من موسكو . فقد رفض الجميع فى شجاعة نادرة – فى ذلك الزمان العصيب والصعب – التعاون معهم . بينما كانت الإذاعات السرية تهاجمهم ليل نهار . ولم يجدوا مفرا من إعادة دوبشيك إلى الحكم بعد أن نزعوا زهور الحرية التى أنبتها ربيع براج ! فقد أرغموه . على وقف الإصلاحات السياسية .

وما حدث بعد ذلك .. كان مثيرًا وغريبًا . فقد كان ذروة الدراما السياسية التى يعجز عن تصورها أى روائى خصب الخيال ، حتى لو كان « كافكا » الذى يصف البعض أدبه بأنه « أدب أسود » ومتشائم .

ففى مباراة رياضية للهوكى ، فاز الفريق التشيكى على السوفيتى . وخرجت جماهير براج إلى الشوارع لتعبر عن فرحتها . ويبدو أنها تذكرت الفردوس المفقود لربيع براج ، فرددت هتافات ضد السوفيت .

وكان أن صدرت أوامر الكرملين بإقالة دوبتشيك وتولى جوستاف هوساك السلطة ليدور ببراج فى الفلك السوفيتى . ولم يترك موقعه إلا منذ عامين .. ليلوش ياكش ولكن الفلك السوفيتى يغير مساره . فهو متجه

نحو الإصلاح الديمقراطى منذ جاء جورباتشوف إلى السلطة . ويفسر هذا تحولات بولندا والمجر والمانيا الشرقية وبلغاريا .

وفى ظل هذا المناخ الجديد . تحركت جماهير براج لتسترد ربيعها . وبدأت مسيرات الشموع المضيئة فى شوارعها للمطالبة بالحرية وإسقاط قيادات الحزب الشيوعى . وبلغت المواجهة ذروتها عندما . انطلقت قوات الأمن لتواجه نحو ٢٥٠ ألف شخص . تريد أن تطفىء بهراواتها ورصاصها شموع الحرية التى فى أيديهم .

وكان العجوز الكسندر دوبشيك بطل ربيع براج يشارك فى هذه المسيرة الكبرى ولكن رجال البوليس انتزعوه بقوة من وسط الجماهير الشابة التى لم تعرف شخصيته إلا عندما أذيع الخبر صباح اليوم التالى . عندما بدأت مسيرة جديدة نحو الحرية .

* ٢٥ / ١١ / ١٩٨٩

أحزان قديمة !

كان رجلاً بسيطًا من عامة الشعب . وعندما اعتصرته الأحزان بعد موت ابنه . حاول أن يخفف عن نفسه بسرد أحزانه لزبائنه . ولكن أحدًا لم يستمع إليه . فسرد أحزانه لحصانه . لقد كان يعمل حوذيا . وهكذا أفلت من الموت حزنًا ... هذه هى قصة تشيكوف الإنسانية الرائعة . لمن أحكى أحزانى .

غير أن أحزان سائق « التاكسى » « هافيل » كانت أكثر تعقيدًا من أحزان حوذى تشيكوف . فلم يجرؤ على سردها لزبائنه . فقد كان يعيش فى زمن الخوف ، وحكمته الذليلة الصمت .

ولكن هافيل قرر مثل الحوذى ألا تقتله الأحزان فتحدث كثيرًا دون أن يسمعه أحد .. كان يكتب على الورق كل ما يجول بخاطره . لقد كان مؤلفا مسرحيا موهوبًا . ولكن زمن الخوف كان يترصد خطاه فى بلاده تشيكوسلوفاكيا .

ومشكلة هافيل أن أسرته كانت غنية . فلم يرض عنه الشيوعيون عندما تولوا السلطة عام ١٩٤٨ . أيامها كان صبيًا فى الثانية عشرة من عمره وعندما دخل سن الشباب لم يسمحوا له بمواصلة التعليم الجامعى ولذلك عمل سائق تاكسى .

وكان فى أوقات فراغه يمارس كتابة المسرحيات وأصبح « فاتسلاف

هافيل » مؤلفًا مرموقًا واضطرت السلطات إلى أن تسمح له بالسفر إلى أمريكا فى أبريل ١٩٦٨ ليشهد عرضًا لإحدى مسرحياته .

ولكن لم تمض أربعة شهور حتى انطفأت أضواء المسرح فى بلاده وعمها الظلام . فقد سحقت دبابات موسكو شموع ربيع براج . وصودرت مسرحيات هافيل .

وعاش مطاردًا . يقتحم زوار الفجر بيته ليفتشوا أوراقه . وخلال هذه الفترة الموحشة عمل فى مصنع للجعة « للبيرة » ليكسب قوت يومه .

ولكنه تمرد على الخوف والصمت . وأسهم فى تكوين جماعة حقوق الإنسان المعروفة باسم ميثاق ٧٧ . ولكن السلطات عاقبته بالسجن لمدة أربع سنوات .

لم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى يسجن فيها . فقد اعتقل لمدة أربعة شهور فى مايو ١٩٨٩ بتهمة التحريض على الثورة .

وفجأة تغيرت الدنيا وشهدت تشيكوسلوفاكيا لحظة إنسانية فريدة لقد اختفى الخوف وخرجت الجماهير إلى الشوارع تهتف للحرية وأصبح هافيل زعيم المعارضة مرشحًا لرئاسة الجمهورية .

يقول هافيل : لست رجل سياسة ولست خبيرًا بمناوراتها . إننى لا أعشق سوى الحرية والمسرح .

لم تعد أحزانه القديمة الآن سوى ذكريات .

---

* ١٦ / ١٢ / ١٩٨٩

حكمة .. «السوبر ماركت» !

طوال شهر أمضاه فى السجن انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام لم يشعر لحظة بالندم .. كان مقدامًا وشجاعًا .. رغم أنه كان شيخًا طاعنًا فى السن تجاوز عمره الثالثة والسبعين .. وعندما تمكن أصحابه من رشوة حراسه حتى يهرب .. رفض وتجرع كأس السم دون أن ترتعش يداه . إنه « سقراط » العظيم .. الأب الروحى لكل فلاسفة الدنيا ومفكريها الكبار .. لقد أنزل ربه الحكمة من فوق عرشها .. وجعلها تمشى فى دروب اليونان وأسواقها ... واتهموه بالترف وإفساد الشباب لأنه جرؤ على أن يفكر .

منذ ذلك اليوم وآلاف من الأبناء النبلاء يمرون عبر بوابة زنزانة سقراط .. لعل آخرهم يعيش الآن فى « قلعة » السلطة فى تشيكوسلوفاكيا .. إنه « فاتسلاف هافيل » الأديب والمسرحى الذى قهر بالكلمات المضيئة جبروت السلطة فى عام ١٩٨٩ .. وهزم بأغصان الديمقراطية هراوات الطغيان ... وأصبح رئيسا هاويًا لا محترفًا .. يتحلق من حوله فى القلعة كوكبة من هواة السياسة منهم الممثلة والمطرب والرسام والمصور السينمائى والكاتب والمحامى .

« هافيل » .. عندما مر خلال سنوات القهر بزنزانة سقراط حيث مكث بين جدرانها الموحشة سنوات أربع .. كان ما يؤرقه كثيرًا ليس قضبان السجن التى تلتف بغلظة حول حريته .. وإنما هذه الدنيا التى

عاثت فيها الأكاذيب فسادًا .. وتوارى فيها الصدق وجلا ويأسًا فى الأحراش النائية .. ولذلك فإن ما يشغل بال « هافيل » هو البحث عن الصدق حتى يتوجه على عرش الحكمة والسلطة .. هذا طموحه .. أما رسالته فهى السلام والحب والصفح حتى عن الأعداء القدامى .

عندئذ تضيء أنوار المسرح .. يقول شعبه فى ودٍّ وتقدير ..أيها الكاتب الرئيس بلاغتك تؤثرنا .. لكنها لا تؤمن حاضرنا ولا مستقبلنا .. لابد من تطهير البلاد من الأعداء القدامى .. لقد وضعوا أقنعة مخادعة على وجوههم وأفكارهم .. وتسللوا إلى السلطة الجديدة .. ألم تكشف التحقيقات الرسمية أن عددا من أعضاء البرلمان كانوا يتعاونون مع جهاز المخابرات القديم ..

المؤلف الرئيس يدرك العقدة لكنه لا يستطيع أن يسدل الستار على مشهد المخاوف والقلق .. التساؤل الذى يرتج له المسرح لم يعد حبكة المسرحية السياسية المرتجلة وإنما براعة المؤلف .

لا يزال الشعب يقول .. يا سيدى المؤلف الرئيس .. أنت بارع حقا فى صياغة الكلمات .. لكن مفردات السلطة قد تبدو عصية يشق عليك فك رموزها .. لك كل الحب والتقدير ... لكن الطعام ليس وفيرًا .. تلك هى المعضلة .. نحن نود أن تغرد طيور الحرية حول سلال القمح وصوامعه .. حتى نشبع .. لا تجزع إذا خدشت كلماتنا بعضًا من أفكارك المجنحة فوق غيوم الواقع .

« هافيل » ... سقراط كان يمشى فى الطرقات وفى صحبته ربة

الحكمة .. كانت لا تزال فتاة صغيرة نضرة .. يبهر حسنها وجلالها عقول الخلق وأفئدتهم .. لكن الزمن تغير .. فتاتك الحكيمة لم تعد كذلك .. لقد انطفأ بريق نضارتها فى عصر « السوبر ماركت » .. لا تحزن .. « الحكمة » لم تعد الآن مجرد بلاغة المنطق .. وإنما بلاغة السيولة النقدية !!

* ٢٧ / ٧ / ١٩٩١

حدث ذات ليلة !

لم يخطر على بال الكاتبة المشهورة أن مستقبلها سوف تهدده الكلاب . لأنها كتبت قصة بطلتها قطة . كانت القطة الشرسة توحى لكل من يتفرس ملامحها ، عبر سطور القصة ، بأنها ترمز للحاكم الفرد الذى ينشب مخالب نظامه فى مواطنيه .

ولم تمر ساعات حتى وجدت الكاتبة الرومانية « أنا بلا نديانا » نفسها منفية داخل بلادها . لقد حددوا إقامتها فى شقتها . لا تغادرها ولا يزورها أحد .

كابوس مخيف يؤرق « آنا » طوال الليل والنهار . فذات ليلة توجه رجل إلى فراشه لينام . وعندما استيقظ فى الصباح أصابته حالة من الرعب : لقد تحول إلى حشرة ضخمة . هكذا يصور الكاتب فرانز كافكا فى قصته « المسخ » كابوس السلطة الغاشمة أيا كان اسمها .

« مسخ » كافكا تحول إلى واقع مذهل فى رومانيا فذات ليلة من عام ١٩٦٥ ، تولى فيها تشاوشيسكو السلطة ، نام أهالى رومانيا . وهم بشر . وعندما استيقظوا ذات صباح ، كان الحاكم الفرد قد حولهم إلى مجرد كائنات يحاصرها الخوف .

فى ذلك الوقت كانت ايلينا زوجة تشاوشيسكو لا تكف عن التباهى بأنها « أم الشعب الرومانى » أم شرسة كالقطة المسعورة تأكل أبناءها

كانت ايلينا تطارد كل امرأة فى سن الإنجاب حتى لا تستخدم أى وسيلة لتنظيم النسل . لأنها تريد لرعاياها المسحوقين أن يزدادوا عددًا . فهم لعبتها . أما هوايتها فكانت غريبة جدًا .. أن يسجل لها عملاء النظام أفلام فيديو سرية للوزراء وكبار المسئولين وهم فى غرف نومهم ! .

لو أن كافكا لا يزال حيا لمزق قصته « المسخ » ، لأن تشاوشيسكو وايلينا حولا العبث واللا معقول من مجرد شطحات خيال بين دفتى قصة إلى واقع مروع .

تمزق هذا الواقع ذات صباح .. أمسك شاعر رومانى عظيم بميكروفون الإذاعة وقال للناس ، أكثر كلمات التاريخ إثارة وبلاغة : لقد سقط الديكتاتور وزوجته فى بحر من دماء ٧٠ ألف رومانى .

---

* ٣٠ / ١٢ / ١٩٨٩

الأشباح تظهر فى الربيع .. أحيانا !

خرج من بيته ذات صباح .. قلبه مثقل بالهموم . يمسك بيده علبة وكان يسرع الخطى حتى وصل إلى مكان لا يرتاده الناس كثيرًا . انتحى جانبا فى مكان لا يراه منه أحد . فتح العلبة وسكب منها « بنزينا » على رأسه وملابسه . أشعل عود ثقاب . وجرى . حتى سقط ميتا .

وجدوا ورقة معلقة فى جذع شجرة ومكتوبًا عليها الانتحار هو الحرية الوحيدة فى زمن الديكتاتورية .

لم يعرف أحد اسمه حين مات . فهو مواطن عادى . ولكن مشكلته أنه كان مثاليا . فصدمه الواقع المزعج فى عهد الديكتاتور شاوشيسكو وزوجته ، حتى قرر فى لحظة ضعف ، أن ينتحر . كان يظن أن هذه هى الطريقة الوحيدة للاحتجاج !

البوليس السرى داهم منزله . وهدد زوجته بأن تلتزم الصمت . ولم تتكلم إلا منذ أيام . قالت الحقيقة المذهلة التى تروع حتى خيال مؤلف مسرح العبث الشهير يوجين يونيسكو . فهو رومانى الأصل . وكان يرى أن شاوشيسكو قد حول رومانيا إلى مسرح حى للعبث واللامعقول .

المشكلة الآن فى رومانيا .. أيها المؤلف المسرحى الكبير .. إن شبح الديكتاتور يطارد الجميع . والخوف من زبانية بوليسه السرى يملأ

القلوب حتى مسئول رومانى قال منذ أيام « لقد هددونى بالموت .. فى مكالمة تليفونية » .

كلهم خائفون .. رغم اعدام شاوشيسكو وايلينا . فخلال محاكمة كبار المسئولين فى البوليس السرى تعمدت كاميرات التليفزيون ألا تصور وجوه القضاة .. حتى لا يتعرضوا للانتقام ! ويحدث هذا الآن خلال محاكمة شقيق الديكتاتور .

الخوف والشكوك تملأ القلوب . هذا ما يقوله رئيس وزراء رومانيا . ويعلل حالة السخط العام بقوله : من السهل أن ننتقل من الديمقراطية إلى الديكتاتورية فى يوم واحد . ولكن الانتقال إلى الديمقراطية يستغرق وقتًا .

شوارع رومانيا غاضبة . لم تهدأ منذ ثورة ديسمبر . ولم يرضها حتى اعدام الديكتاتور وزوجته . إن الناس لا يريدون أى رموز فى السلطة ممن كانوا يوما فى بلاط الإمبراطور .

يقولون هناك : إن الربيع جاء هذا العام مبكرًا . ولكن شبح الديكتاتور لا يزال يؤرق الجميع .

حالة غريبة فى رومانيا : الواقع محموم بالخوف . إنها أعراض الديكتاتورية اللعينة ليست مجرد نظام فاسد ومفسد ولكنها مرض يقتل الحلم الإنسانى وكل الأمنيات البريئة .

---

* ٧ / ٤ / ١٩٩٠

الأمير .. والكلب !

عندما اقترب الرجل من مزرعة الحيوانات التى يملكها ، أصابته دهشة مروعة . كان ما رآه مشهدًا غريبًا . لقد نصب الخنزير من نفسه حاكمًا على المزرعة . وادعى أن صاحبها لم يقم بدوره . وأهمل فى مهمته .

هذه هى رواية الكاتب البريطانى « جورج أورويل » نشرها عام ١٩٤٥ . وينتقد فيها الاستبداد والديكتاتورية . ولم يمتد العمر بأورويل ليرى أن خياله الروائى قد أصبح واقعًا فاجعًا فى رومانيا . فبعد عشرين عامًا من نشر روايته دخلت رومانيا فى دائرة « مزرعة الحيوان » فى زمن الديكتاتور شاوشيسكو .

المثير أنه فى ذات العام الذى توفى فيه (أورويل) ، وهو عام ١٩٥٠ . رزق الديكتاتور بولى للعرش فى مزرعته الرومانية القادمة أسماه « نيقو » . عندما شب عن الطوق كانت ملعقة من ذهب لا تزال فى فمه . كان طفلاً مدللاً . ثم شابًا فاسدًا .

عرفت الدنيا فضائحه ، ولم يصدقها البعض لبشاعتها .كشفها الجنرال « ايون باسيبا » مدير مخابرات الديكتاتور عندما هرب إلى أمريكا عام ١٩٨٧ . نشرها فى كتاب أسماه : الآفاق الحمراء . روى فيه قصصًا مذهلة ، وقائعها تفوق الخيال . لم يقرأها أهالى رومانيا سوى هذه الأيام ، بعد السماح بتداول الكتاب .

الناس لم تدهشهم قصص هذا الكتاب . كانوا قد شاهدوا الحقيقة المروعة .. بعد إلقاء القبض على الأمير « نيقو » . عندما فتشت السلطات قصره الأسطورى ، هال الناس أنه خال من أية لمسة من لمسات الحضارة . لم يلفت النظر فيه سوى صور كثيرة لكلبه « نيرو » هذا الكلب كان حبه الأكبر والوحيد . لا غرابة فهو قد تربى فى « مزرعة الحيوان » .

فى لحظة الخطر ترك الخنزير الكلب . حاول الهرب فى سيارة فارهة مع جارية من جواريه ! لكنهم اعتقلوه . عندما بدأت محاكمته لم يبد أى ندم لإصداره الأوامر بإطلاق النار على ثوار ديسمبر .

« جورج أورويل » .. أيها الروائى الكبير .. معذرة .. خيالك السياسى رغم روعته يبدو خجولا ومتواضعًا . إن المزرعة الرومانية سابقًا تذهل وقائعها الخيال .

---

* ٩ / ٦ / ١٩٩٠

مصرع .. كاتب !

كان يعلم أن حكمًا سريًا قد صدر باغتياله .. التزم جانب الحذر عله يفلت من مصير مأساوى كان يبدو محتومًا .. لم يكن سوى كاتب مرموق هرب من الطغيان فى بلاده .. وبارز بالكلمات الصادقة وحدها نظاما شرسًا وحكمًا جائرا .. فأثار غضب الطاغية عليه .

وذات يوم شتوى لم تشرق شمسه لقى الكاتب مصرعه فى مدينة الضباب لندن . كان القلق قد استبد به ، وروعته الهواجس .. فخرج إلى شوارع المدينة ليسرى عن نفسه .. وهناك فوق جسر « ووترلو » شعر فجاة بألم حاد فى ساقه . عندما انحنى ليتحسس موضع الألم .. رأى رجلا غامضًا يلتقط مظلة سقطت من يده .. وقال له فى ود مصطنع .. « أنا آسف » .

عندما عاد إلى منزله كانت درجة حرارته قد ارتفعت ومات بعد ثلاثة أيام . أكد الأطباء أن طلقة سامة فى حجم رأس دبوس الإبرة نفذت فى ساقه وقضت عليه .

هذه هى مأساة الكاتب البلغارى « جورجى ماركوف » كان واحدًا من ألمع المثقفين فى بلاده .. لكنه ضاق ذرعًا بنظام الطاغية « جيفكوف » .. فهرب عام ١٩٦٩ وكتب عن « الحقيقة التى قتلوها » وفضح نظام الطاغية الذى عاث فى بلاده فسادًا منذ تولى

السلطة عام ١٩٥٤ .. وظل قابضًا عليها وعلى رقاب مواطنيه لمدة ٣٥ عامًا ..

اغتيال الكاتب ظل لغزًا لا يتجاسر أحد على محاولة كشف أسراره السياسية .. حتى سقط الطاغية فى نوفمبر ١٩٨٩ .. اقتلعته رياح الديمقراطية التى قوضت النظم الشمولية فى أوروبا الشرقية حددوا إقامته .. وقدموه للمحاكمة فى فبراير ١٩٩٠ بتهمة الفساد واستغلال السلطة وإثارة العداء الطائفى .. وتخريب البلاد ..

محاكمة الطاغية لا تزال مستمرة .. غير أن تهمة جديدة تلاحقه هذه الأيام هى : إصداره الأوامر باغتيال الكاتب « ماركوف » وهى تهمة تشير الوقائع التى أعلنت حول ملابساتها المريبة والغامضة أن « جيفكوف » ضالع فيها ولن يفلت من العقاب .

الدائرة تضيق حول رقبة جيفكوف .. وإذا كان قد استطاع أن يراوغ خلال محاكمته بنفيه للتهم المنسوبة إليه حول استغلال النفوذ .. فإن وقائع اغتيال الكاتب سوف تدينه . يقول المحققون أن عشرة أشخاص فى مقدمتهم الطاغية متورطون فى مقتل ماركوف .

« جيفكوف » القاتل والطاغية .. عندما سقطت رماح السلطة من يده .. لم يستطع أن يردد شعاره الديكتاتورى : « ينبغى سحق المعارضة مثلما نسحق الأفعى » .. لكنه نظر إلى الوراء فى يأس وغضب وقال « الشيوعية كانت خطأ جسيمًا » كلمات يرثى بها نظامه القبيح .. ولكنها تدينه ولا تبرىء ساحته ..

« جورجى ماركوف » موكب كلماتك الصادقة يحاصر الآن الطاغية .. يصفع نظامه .. يزف عرس الزمن القادم .. زمن لا تقتل فيه الحقيقة .. ويحيا الناس فى ظلالها النورانية بلا أقنعة أو خوف .

• ٨ / ٦ / ١٩٩١

٤

الفتى الأحمق وصمت إسماعيـــل !!

أغنيـــة .. على الجســر !

كان والده فلاحًا من فقراء القوم . أما أمه فكانت شابة ذكية الفؤاد .. صلبة الإرادة . عندما مات أبوه فجأة كان طفلاً فى الثانية من عمره . لم تستسلم أمه لقوة القدر . حملت وليدها الصغير وشدت الرحال إلى بيت أسرتها البعيد . كابدت ألوانا فظة من العناء حتى علمته .

ذات يوم انفطر قلبها حزنًا .. عندما اعتقلت سلطات الاحتلال ابنها الشاب بتهمة عشق الوطن .. حدث هذا أثر إطلاق الرصاصة التى أشعلت أول حرب عالمية . رصاصة أطلقها شاب من أبناء بلدته « البوسنة » على ولى عهد النمسا . قامت الدنيا كلها عام ١٩١٤ ولم تقعد إلا بعد أربعة أعوام ثقيلة بالدم والدمار .

عندما أطلقوا سراحه .. بدأ يسطر أولى كلماته فى ديوانه « يوميات غنائية » هذا هو الروائى اليوجوسلافى « ايفو اندريتش » . كان الوطن محرابه .. واحة عشقه ، فردوسه ودنياه ، سجل ملحمة تاريخه بكل

أفراحها وأتراحها فى رائعته « جسر على نهر درينا » .. يقول من فوق الجسر « لا تيمم وجهك عشقا أو حبا أو فكرًا سوى فى اتجاه الوطن .

عندما قال ذلك كان الوطن تحت راية « تيتو » يرد جحافل الغزو النازى .. ابان الحرب العالمية الثانية . عندئذ بادرت السلطات بتحديد إقامة « ايفو اندريتش » فى شقته الصغيرة .. ظل حبيس جدرانها حتى رفرفت راية يوجوسلافيا فوق جسر نهر درينا الجسر يصل الآن كل أنحاء الوطن . عبر من فوقه شامخا ليحصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦١ . ثم مات قرير العين عام ١٩٧٥ .

« تيتو » كان قد وعى موعظة الجسر . أدرك بثاقب فكره أن الوطن يموت لو ارتد الأبناء يوما إلى رحم القبيلة .. ليولدوا من جديد وهم يشهرون السيف فى وجه كل الجيران .. أبناء الوطن الواحد ..

هذا ما حدث فى يوجوسلافيا .. رغم وصايا « تيتو » بالقيادة الجماعية .. لكنهم هناك قرروا أن يدفنوا وصاياه مع بقايا جثمانه !! يشهرون الآن سيوفهم القبلية . شبح الحرب الأهلية يطل برأسه .. لا يبالون .. يهمسون فى هوس أحمق .. الوطن يحتضر .. ارفعوا الأعلام الجديدة فوق مضارب القبيلة .. يمارسون طقوس الموت .. وهم لا يدركون أن من ينشطر قوميا .. ينتحر جماعيا .

« ايفو اندريتش » .. تذرف دموعك من فوق جسر نهر الوطن حزنًا وكمدًا .. لم يخطر ببالك يوما هذا المشهد المستحيل .. أن يلعب الأبناء لعبة الأعداء !!

« ايفو » يستدعى خيالك .. تحت وطأة آلامك .. من إشراقات المستقبل .. شابًا يقبض قلبه على حب الوطن .. كالقابض على الجمر يقول للجميع .. اوقفوا اللعبة الحمقاء .. قبل أن يجرفنا الطوفان .. ولن ترى مضارب قبائلكم يومًا علمًا !

* ١٨ / ٥ / ١٩٩١

الفتى الأحمـق !

ذات صباح استبد الجموح والعناد بفتى صغير .. توجه غاضبًا إلى أمه .. طلب منها أن تخبره أين يعيش أبوه حتى يتأكد من انتسابه إليه . حاولت الأم عبثا أن تثنيه عن مطلبه . لكنه أصر .. فرضخت على كره منها . وعندما عثر على والده لم ينكره ، ولكن الفتى خامرته فكرة حمقاء . طلب من أبيه أن يقود بدلا منه مركبة الشمس من المشرق إلى المغرب لتتأكد الدنيا من انتسابه إليه . حذره أبوه . ولكن الفتى الأحمق لم يتراجع عن غيه .

عندما امتطى المركبة لم يستطع السيطرة عليها اصطدمت بالكواكب الأخرى .. أحدث دمارًا كونيا مروعًا . عندئذ تضرعت ربة الأرض إلى رب الأرباب « زيوس » لينقذها من الفناء .. استجاب لها بإطلاق صاعقة أهلكت الفتى وعادت المركبة إلى أبيه إله الشمس « أبوللو » .

هذه أسطورة يونانية قديمة تضيء سطورها بالرموز والدلالات الموحية المتجددة .. البشر فى هذه الدنيا يلعبون أحيانا لعبة الحماقة المدمرة . يعبثون بمسارهم ويلهون بمصيرهم .. دون تبصر أو بصيرة !

يحدث هذا الآن فى يوجوسلافيا .. يتنازعون ليقود كل زعيم قبلى منهم « مركبة أبوللو » لا يهم أن تضطرب البلاد فى أتون الأزمة .. وعندما بدأت نذر يوم القيامة هناك لم تتضرع ربة الأرض للجيش الاتحادى

لينقذها من الهلاك . فقد كانت تدرك أن جنرالاته يتدثرون بعباءة جمهورية الصرب .. وعندما وقعت الواقعة وتدخل الجيش قال العارفون ببواطن الأمور « لقد خرج المارد من القمقم ولن يعود إليه » إنه انقلاب عسكرى غير معلن !

يوجوسلافيا[1] تكابد محنة العبث القومى ومخاطر الانزلاق موتا من حظائر القبلية .. يضطرب قلب أوروبا جزعًا .. وتهرع لرأب الصدع .. تنتابها المخاوف من أن تفتك جرثومة القبلية الجديدة بأقطار أوروبية أخرى .. يقول الراوى وهو يقرأ من كتاب التاريخ .. لم يكن ثمة مفر من الحماقة لقد تماسكت قبائل يوجوسلافيا بعد موت زعيمها التاريخى « تيتو » عام ١٩٨٠ .. لم يكن الأمر معجزة .. ذلك أن الحرب الباردة كانت لا تزال مستعرة .. ولكن ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى كان حتميا أن تتفجر المتناقضات وينفرط العقد .. وأن يضرب الزلزال القبلى كل أنحاء البلاد .

يا حكماء العصر .. نعلم أن هذا رأيكم .. ولكن ما الحل ؟ إن الخطب جسيم والهول وخيم ... ولم يعد فى مقدور « زيوس » رب الأرباب فى الأساطير أن يمنع الكارثة .. لم يعد فى وسعه رغم جبروته وحكمته القديمة أن يناطح أجهزة الكمبيوتر فى غرف عملياتكم المغلقة والمعلق على جدرانها الأسمنتية خرائط الدنيا .

---

(١) تمزقت أوصال الوطن اليوجوسلافى بالفعل وأعلنت جمهورياته استقلالها . وقد نشرت هذه الحكاية بتاريخ ١٩٩١/٧/٦ .

معذرة « زيوس » .. لا تذرف الدموع عجزا لقلة حيلتك الآن .. يكفى أنك أنقذت دنيا الأسطورة من عبث الفتى الأحمق .. ولكن حمقى هذا الزمن من ينقذ الدنيا منهم ؟

صمت.. إسماعيـــل !

منذ تمكن من الفرار من بلاده .. اختفى بعيدًا عن الأنظار فى منفاه الجديد .. يجتر ذكريات الزمن الماضى فى منزل لا يعرف أحد عنوانه .. تطارده بين جدرانه عقدة ذنب لم يبرأ من جراحها النفسية الغائرة فى ذاته .. إنه كاتب موهوب وذائع الصيت .. كانت مبيعات رواياته هى المورد الوحيد من العملة الصعبة لبلاده .. كان وقتها صديقًا حميمًا للحاكم المستبد .. يمارس تحت عباءة حمايته قدرًا من حرية التعبير لم يكن فى وسع أحد غيره أن يحظى بها . ولعل هذا سر إبداع كتاباته وتألقها .. إنه الروائى الألبانى « اسماعيل قدرى » .. عندما غربت شمس حياة صديقه الطاغية « أنور خوجه » عام ١٩٨٥ .. تململ وحيدًا تحت وطأة نظام خليفته « رامز عاليا » .. ولم ينضم لحركة المعارضة الديمقراطية الوليدة .. واكتفى بالفرار .

ولم يقصد « إسماعيل » أن يشق بهربه طريق الخلاص لمواطنيه الذين أرهقهم حكم الطغيان إلى حد الرعب من الوطن ذاته ! فلم يحدث فى تاريخ الدنيا هجرة جماعية مأساوية مثل هجرة شعب البانيا هذه الأيام .. آخر موجاتهم المهاجرة تنطوى على دراما إنسانية مروعة .. بدأت فصولها الدامية عندما سرت الأنباء .. فى الشوارع بأن سفينة ايطالية رست على الشاطىء .. عندئذ تدافع ١٥ ألف شخص .. اقتحموا السفينة العتيقة أرغموا قبطانها تحت تهديد السلاح على الإبحار بهم إلى ايطاليا .. كانوا

يمنون النفس بالفرار من الجحيم والهبوط فى أرض النعيم .. لكنهم عندما هبطوا على شواطىء المدن اللامعة .. لم يرحب بهم أحد .. أشهر رجال الشرطة البنادق فى الوجوه الجائعة .. قالوا لهم ... عودوا من حيث أتيتوا .. لامكان لكم بيننا .

المشهد الايطالى يذكر الناس بجحيم شاعرهم العظيم « دانتى » فى رائعته « الكوميديا الالهية » .. غير إن جحيم دانتى لم يكن أبديا كان مرحلة يتطهر بعدها البشر من آثامهم وشرورهم ثم يدخلون إلى دنيا الفردوس .. لكن جحيم المهاجرين الالبان لا مخرج منه ولا مفر ..

وتبلغ المأساة ذروتها عندما لوح المهاجرون باللجوء إلى العنف حتى لا يعودوا إلى بلادهم بالقوة عندئذ تفتق ذهن شيطانى عن خدعة .. قالوا لهم استعدوا للرحيل إلى بلد غربى آخر .. وتهللوا فرحًا .. غير أن الطائرات شحنتهم إلى البانيا .. ولم يفطنوا لهول الخدعة إلا عندما .. وجدوا أمامهم عند مهبط الطائرات رجال البوليس السرى يحيطون بهم من كل جانب .. إنه الجحيم لا مهرب منه حتى إشعار آخر ..

« جحيم دانتى » الجديد .. يشاهده « إسماعيل قدرى » على شاشة التليفزيون فى شقة مجهولة العنوان فى باريس .. لم يذكر لأحد فى المدينة التى تحتفى أجهزة اعلامها بهمساته إن المأساة تروعه .. لقد التزم الصمت رغم بلاغة كلماته وطلاوة عباراته .. عله كان يحصى أرباحه من كتابه الجديد « ربيع البانيا » .. معذرة إن بعض الظن إثم .. ولكن صمت « إسماعيل » هو الإثم الأكبر ..

* ١٧ / ٨ / ١٩٩١

اعترافات ... رامز !

علمته أمه القراءة ... فتحت أمامه حروف الكلمات كونًا رحبًا يفيض بالسحر والعذوبة ... وحلق على أجنحة الخيال وهو يقرأ رائعة الشرق « ألف ليلة وليلة » لكنه سرعان ما هبط على أرض الواقع الموحش .. كان لا يزال فى الحادية عشرة من عمره عندما اضطربت الدنيا من حوله .. وبدأ رحلة العمل الشاق لكسب قوت يومه .. فقد سجنوا والده بسبب ديونه .. ودخلت عائلته معه وراء القضبان .. امضوا أربعة شهور لم تشرق عليهم الشمس !

لم تبرأ ذاته من عذابات هذا المشهد الفاجع والمفجع .. لكنه فطن إلى أنه لا خلاص للإنسان فى زمن التحول الصاخب سوى بعزف أنشودة العدل .. إنه « تشارلز ديكنز » الروائى البريطانى المبدع .. كانت بلاده انذاك تخرج من ليل القرون الوسطى وحكم الاقطاع ... لتدخل زمن الثورة الصناعية ... بكل ما تفرزه من تناقضات اجتماعية جائرة ومروعة ... هذه الدراما التاريخية فى تحولاتها العاصفة الهمته رواياته الكبرى « اوليفر تويست » و « ديفيد كوبر فيلد » وقصة « مدينتين » وغيرها من روائعه التى أضاءت للمفكرين فى زمانه رؤيتهم للدنيا .

هذا العالم القديم الذى أرق ديكنز لا يضارعه فى بشاعته سوى الواقع الأسطورى للتعاسة فى البانيا ... الناس هناك تستعصى عليهم كسرة

الخبز .. يقفون فى الطوابير الطويلة ثلاثة أيام متتالية دون أن يحصلوا على ما يقيم أودهم من الطعام ... عندما خرجوا من خلف أسوار عزلة الديكتاتور « أنور خوجة » تبينوا أن سنوات حكمه أخرجتهم من تاريخ الدنيا .. يذكرهم العالم اليوم بأنهم أفقر فقراء أوروبا .. وأشدهم حزناً وضياعًا .

عندما مات الديكتاتور عام ١٩٨٥ .. كان الزمن الجديد قد بدأ رحلة التحولات الكبرى .. كسرت أحجار سور برلين عام ١٩٨٩ نوافذ قصر خليفته « رامز عاليا » .. خرج أهالى البانيا إلى الشوارع .. أملهم الوحيد أن يهربوا من أصفاد الطغيان .. منذ أيام وخزت بطونهم الخاوية آلام الجوع .. اقتحموا الحوانيت أخذوا منها ما أخذوا وحطموا ما حطموا ..

لم يهدئ من روعهم وغضبهم اعترافات رامز ... يقول : إننى استحق القليل من اللوم على فظائع نظام خوجة ... ثم يضيف بالحرف الواحد : اعلم أن كرسى السلطة يعصمنى من الاعتقال والمحاكمة .. ولذلك لن أبرحه إلا عندما تنتهى مدة رياستى عام ١٩٩٥ .. وعندما يكتمل التحول الديمقراطى ! .. الانتخابات الحزبية الجديدة جرت فى ألبانيا يوم ٢٢ مارس الماضى ... تصارع فيها الشيوعيون القدامى والديمقراطيون الجدد[١] .

(١) انتصر الديمقراطيون .. وأرغم رامز عاليا على تقديم استقالته ..

« تشارلز ديكنز » رغم رحيلك منذ زمن بعيد إلا أن أطياف عالمك القديم يعود .. فهل تنسخ سطور رواياتك من جديد .. الدنيا الآن بين مفترق طرق جامحة .. الخلق فيها تعصف بهم أحلام هوجاء .. للثراء بلا عناء .. هل تقول لهم أن دروبهم لن تكون آمنة .. حتى تنبت على جوانبها أشجار العدل والحكمة ..

* ١٤ / ٣ / ١٩٩٢

٥

أسطورة الماضى الجميل ولحظة العناق !!

أسطورة الماضى الجميل !

انتظروا طويلا على الشاطىء ، استبد بهم اليأس لأن السفن لم تأت لأول مرة منذ عشرين عامًا . ليس أمامهم سوى أن يشدوا الأحزمة على البطون . وعلى الرجال ألا يحلقوا ذقونهم . فلم تأت شفرات الحلاقة سبوتنيك من الاتحاد السوفيتى .

على ذات هذا الشاطىء الكوبى الجميل رست ، منذ خمسة قرون ، سفينة . لم يكن فى انتظارها أحد . كان عليها كريستوفر كولومبس مكتشف الدنيا الجديدة فتحت هذه السفينة الطريق أمام إسبانيا لاستعمار كوبا سنوات طويلة . وقاد سبارتكوس « الكوبى » ذات صباح ، ثورة العبيد ضد المحتل . ولكن الثورة قمعت بعنف ووحشية .

شاعر كوبى شجاع ، يكتب قصائد رومانسية للحب وللوطن ، قاد بعد سنوات ، ثورة أخرى ولكنه قتل فى معاركها . أنه « خوزيه مارتى » الأب الروحى لفيدل كاسترو قائد ثورة كوبا .

كاسترو تتجاوز أسطورته ، أسطورة الشاعر المحارب مارتى . عندما كان فيدل طالبا فى الجامعة بدأ مسيرته الصعبة لتحرير كوبا من الديكتاتورية والتخلف . محاولته الأولى فشلت عام ١٩٥٣ عندما حاول الاستيلاء على قلعة عسكرية . حكم عليه بالسجن .. عندما أطلق سراحه إلى المكسيك . هناك التقى بالأرجنتينى الثائر جيفارا . عادا معا إلى كوبا سرا عام ١٩٥٦ ، على متن سفينة قديمة . كان معهما ١٢٠ مقاتلا .

عندما رست سفينتهم على الشاطىء . وقع الرجال فى كمين .مزقت طلقات الرصاص أجسادهم .

لم ينج بمعجزة سوى عدد قليل منهم .. هربوا إلى جبال سيرا مايسترا .

بعد حوالى عامين من حرب العصابات ، هرب الديكتاتور باتيستا إلى أمريكا ، بعد أن قتل ٢٠ ألف كوبى . وتولى كاسترو السلطة . وبدأ رحلة تأكيد استقلال بلاده . وتحدى الجار الأمريكى القوى . زادت شعبيته . وتألفت الأسطورة . ولا يزال شعب كوبا ينظر إلى كاسترو حتى الآن باعتباره البطل القومى رغم المتاعب الاقتصادية .

الوطنية هناك تطغى مشاعرها الجارفة على أى عقيدة أيديولوجية . إنها طوق نجاة كاسترو حتى الآن من طوفان التغييرات الديمقراطية الذى يجتاح أوربا الشرقية .

منذ أيام قال كاسترو . « على جزيرتنا أن تغرق فى البحر قبل أن تتخلى عن علم الثورة والاشتراكية » .

فيدل .. يا بطل أسطورة الماضى الجميل ، الواقع الآن أكثر تعقيدًا ، فالخبز لم يعد دقيقه يأتى من موسكو . ولم تعد دول أوربا الشرقية الشقيقة « سابقا » . قادرة على مد يدالعون .

فيدل .. البحر من أمامك .. لم تعد تأتى منه السفن السوفيتية ، والعدو من ورائك .

ما العمل .. والحزب الشيوعى السوفيتى الشقيق « سابقًا » .. قرر إنهاء سيطرته على السلطة بعد ٧٢ عاما لم تعد مظلته الجديدة تقيك من العواصف . لم يبق فى كوبا سوى أسطورة الماضى الجميل .

والخبز فى هذا الزمن الصعب يتحدى الأساطير .

* ١٠ / ٢ / ١٩٩٠

العجوز .. والكهف !

عندما ضاقت به سبل الرزق لأكثر من ثمانين يومًا .. لم ييأس الصياد العجوز .. أصر على الابحار بقاربه العتيق فى مياه الخليج .. كان يمنى النفس بصيد ثمين .. وحالفه الحظ بعد عناء .. اصطاد سمكة ضخمة . غير أنه فقدها وهو فى طريق عودته إلى الشاطىء . فقد هاجمت أسماك القرش سمكته .. التهمتها تماما .. لم يبق منها سوى هيكلها العظمى الضخم !

هذه هى ملحمة « العجوز والبحر » .. رائعة الكاتب الأمريكى العظيم « ارنست هيمنجواى » .. لعله استوحى فكرتها من عشقه لكوبا وخليجها وشواطئها الجميلة .. وقد نشرها عام ١٩٥٢ . وحققت له شهرة عالمية مدوية . واقتنص بها جائزة نوبل للآداب بعد ذلك بعامين .

أسطورة الصياد الكوبى العجوز « سنتياجو » لم تستمر وحدها سوى سبع سنوات .. فقد زاحمتها أسطورة أخرى لشاب اسمه « فيدل كاسترو » .. استطاع « فيدل » أن يفلت بالسمكة الكوبية من براثن حاكم جائر .. كانت دكتاتورية « باتيستا » تنهش فى كوبا مثلما نهشت أسماك القرش سمكة « سنتياجو » .

فى بدايات حكم كاسترو غدت كوبا حلما يهز وجدان الكثيرين فى أمريكا اللاتينية .. الديكتاتورية تحتضر .. والحرية قادمة .. لكن الانتظار يطول .. لم تأت إلى شواطىء كوبا سوى السفن السوفيتية وهى

تحمل شحنات من البترول والقمح وبيروقراطية الحزب الواحد وكتب لينين وماركس .

وتمر السنوات .. ويتحول الحلم إلى كابوس مروع .. يخنق الأمنيات .. ويجهض الأفكار .. ويلتهم الأصدقاء القدامى .. « كاسترو » وحده يمتلك خزائن الحكمة ونواميس بيروقراطية الحزب الواحد .. وعلى الآخرين أن ينصاعوا .. أو يرحلوا هربا إن استطاعوا الإفلات من المصير الموحش لسمكة العجوز سنتياجو .

« كاسترو » يتلقى شحنات موسكو طوال أكثر من ثلاثين عامًا .. وبها يناطح الجار الأمريكى .. ولم يخطر بباله أن طوق نجاته قد لا تأتى به السفن السوفيتية ذات يوم !

ولذلك استبد الذهول بالعجوز « كاسترو » عندما لم تأت رياح أفكار جورباتشوف الجديدة بما يشتهى .. عندئذ هرع إلى كهف الشعارات القديمة يستلهم منها بلاغة الخديعة ... لكنها لم تصمد طويلاً أمام وهج التحولات الديمقراطية التى بدأها الرفاق القدامى ..

وازداد « كاسترو » ذهولا .. عندما رشقته صحف موسكو بالكلمات اللاذعة والموجعة .. فضحته إلا قليلا .. قالت إنه يمتلك ٣٢ منزلا .. ويتولى حراسته الشخصية أكثر من ٩ آلاف شخص .. وزادت الطين بلة من حوله بتأكيدها إن اقتصاد كوبا مثل شخص معوق منذ طفولته .. حكمت عليه الاقدار بالاعتماد على « عكاز » المساعدات الأجنبية .

يفطن « كاسترو » بعد عناد ومكابرة إلى أن الزمن تغير .. يخرج ملومًا محسورًا من كهف شعاراته القديمة .. يقول وهو يرثى نظامه .. إن الرفاق القدامى انفضوا من حوله .

« كاسترو » .. لا مفر .. ولا مهرب .. أسطورة الماضى لم تطرح تمرا .. تحولت إلى شجرة عجوز يابسة تتساقط منها أوراق الحزن والأسى .. فى دنيا الأرقام لا تتألق حروف الكلمات إلا إذا تفتحت أكمامها عن زهور الحرية .

• ٢٩ / ٦ / ١٩٩١

العصفور .. وإلهة الحب !

منذ فترة .. وهو يعانى من مشاعر مريرة من الحزن والأسى . يشعر كأن الأيام القادمة تعاند طموحه . لقد صنع بيديه ومعاناته تمثالاً جميلاً للحرية . ولكنه لم يعثر فى زمن التكنولوجيا على « فينوس » الهة الحب فى الأساطير اليونانية .لتحقق أمنياته . لقد رقت لحالة الفنان « بيجماليون » عندما استعطفها بصلواته ودموعه فجعلت تمثاله الرخامى الجميل فتاة تنبض بالحياة والحب .

. « ليخ فاونسا » .. هو هذا الرجل الحزين الآن فى بولندا يشعر بأن تمثاله الجميل يخذله . ربما وقع فى غرام غيره .. يتذكر أنه خرج ذات صباح من عام ١٩٨٠ . وقد وضع رأسه على كفه . ترك أطفاله الثمانية لمستقبل غامض . لم يستطع رغم براءتهم وخوفه عليهم أن يقاوم نداء الوطن والحرية .

أطلق صيحة التحدى الأولى فى وجه النظام الشيوعى فى بلاده . رجع صيحته كان مولد أول نقابة عمالية مستقلة فى البلاد الشيوعية . لم يستطع النظام الشمولى كتم نداء الحرية عندما فرضت الأحكام العرفية واعتقل فاونسا .

قال صوت السلطة بسخرية : « العصفور يريد أن يصبح نسرا » . زاد غضب الجماهير .. وحاصرت الأزمة السلطة . عندما ناورت بلعبة الانتخابات . وقعت بها الواقعة .

فاز أنصار العصفور . فى وقت كانت فيه نسمات من الحرية تهب من موسكو . وجاءت أول حكومة غير شيوعية فى بولندا فى أغسطس ١٩٨٩ ورفض فاونسا أن يصبح رئيسا للوزراء . آثر أن يبقى زعيمًا عماليا . لم يكن يدرك أن سور برلين سينهار بعد ذلك بحوالى ٣شهور .

فاونسا يعيش معظم أيامه فى منزله الجديد الكبير . يشعر أن الأيام تفلت منه . ما هكذا ينبغى أن يعيش أبطال الديمقراطية . لم يبدد قلقه تعاقد هوليود معه على تحويل قصة حياته إلى فيلم سينمائى .

العصفور لا يريد أن يبتعد عن المسرح السياسى . لقد كان النجم الوحيد اللامع فوق خشبته طوال سنوات . ولذلك قرر أن يرشح نفسه للرئاسة . وهو قرار يثير الجدل بين أنصاره وخصومه . يقولون إنه يعانى من شعور بالحسد من فاتسلاف هافيل الكاتب التشيكى الذى أصبح رئيسا ولذلك رفض أن يقابله عندما زار بولندا مؤخرا .

أيها العصفور الحزين .. عليك أن تصبح نسرا ، حتى تحلق عاليا .. فاما أن تقف على قمة الدنيا ، أو أن تلقى حتفك السياسى . « وفينوس » .. لن ترق لحالك . فقد ولى زمن الأساطير .

---

* ٢٨ / ٤ / ١٩٩٠

لحظـة .. العنـاق

ذات يوم أرغمته الظروف على الرحيل من وطنه .. كان يريد أن ينضم لحركة المقاومة محاربا من أجل الحرية .. لكن اعتلال صحته حال دون امتشاقه السلاح .. والكر والفر .. كان كل من حوله يتوقع موته فى أية لحظة .. لذلك أقنعة أقرانه بالرحيل .. وكلفوه بمهمة صعبة .. أن يجعل الدنيا دائما تتذكر اسم بلاده .. وأعطوه حفنة مقدسة من تراب الوطن .. لم يخذل أمنياتهم .. فقد أبدعت موهبته موسيقى عبقرية هزت وجدان الخلق ..

إنه « شاعر البيانو » الفذ « فردريك شوبان » .. خلد بموسيقاه الباهرة والمبهرة اسم بلاده بولندا .. أغنياتها الشعبية كانت مصدر إلهامه الأول والأخير .. عندما انطفأ سراج حياته فى باريس .. كان فى الأربعين من عمره .. دفنوا جسده فى ثراها .. ونثروا على قبره تراب أرض وطنه .. أما قلبه الذى نبض بحب بلاده فقد حنطوه ودفنوه تحت شجرة وارفة الظلال فى وارسو ..

وطن شوبان منذ ذلك الزمن البعيد لم يعرف سوى الحان الحزن والأسى .. يبحث دائما وأبدا عن لحظة سرمدية أبدية .. لحظة عناق الحرية والخبز ... عندئذ يبدأ زمن المدن الفاضلة وتضىء قناديل البهجة الروحية حضارة العالم ..

ظن الناس البسطاء فى بولندا يوما فى أعقاب الحرب العالمية الثانية

أنهم على مشارف وطن الحلم .. وأن دبابات « ستالين » التى اجتاحت أوروبا الشرقية ستحرث الأرض لتنبت ثمار العدل .. لكنهم لم يحصدوا سوى القهر .. قلب شوبان يتوجع كمدا وحسرة .

لكن شجرة شوبان لم تذبل أوراقها رغم قحط الأرض من حولها ... تسلقها ذات يوم من عام ١٩٨٠ شاب بولندى جسور .. وأعلن بيانه الأول عن الحرية ... التف الناس حول « ليخ فاونسا » .. شكلوا نقابة مستقلة اسمها « تضامن » .. طريقها إلى السلطة كان عاصفًا ودامياً .. لكن بشائر الانتصار لاحت فى الأفق عندما أطلق « جورباتشوف » من فوق قمة الكرملين رياح الديمقراطية التى عصفت بالنظم الشمولية .. التاريخ فى بولندا فتح أبوابه لحلم الحرية المطارد .. فاونسا يعتلى العرش الجديد .

بولندا تهرع إلى فصم أواصر عراها بالماضى .. تطبق « العلاج بالصدمة » للتخلص من آثاره والتحول السريع إلى اقتصاد السوق .. ينطلق قطار فاونسا بأقصى سرعته .. يخلف وراءه على محطات البؤس أكثر من مليونى عاطل . ومليون آخر فى الطريق .. يزيد الطين بلة أن الحوانيت تحولت إلى متاحف للسلع المستوردة .. فالأسعار أصابتها فجأة لوثة من جنون .

منذ أيام قال فاونسا لحكماء الغرب معاتبا : ثمار الانتصار مذاقها الآن مر .. والديمقراطية تفقد أنصارها فى أوروبا الشرقية .. مصانعنا تختنقها سلعكم المستوردة .. نحن يا سادة فى أمس الحاجة إلى التكنولوجيا

الحديثة .. يعقب الرواة على كلامه .. هذا صحيح .. ولكن يبقى حتى تكتمل الصورة أن مدير مكتب فاونسا هو سائق سيارته ! وأن الصراع الجامح على السلطة أسفر عن انفضاض كل الرفاق الأكفاء من حوله !

شوبان ... الأحزان تغمر بلادك .. الفرحة التى ملأت القلوب منذ عامين تحولت إلى هواجس عاتية من ديكتاتورية قادمة على موجات اليأس والاحباط .. مشارف وطن الحلم مازالت بعيدة ... ولكنا نسعى إليها منذ فجر التاريخ ..

• ١٥ / ٢ / ١٩٩٢

٦

التاريخ .. فى سيارة مرسيدس !!

لم يحتمل الشاب الطموح أن يعيش فى ظل الأسطورة طويلاً كان يريد أن يحقق ذاته . ورفض أن يكون مجرد دمية تحركها أصابع رجل مخنك ، يتشح بعباءة التاريخ ، وزهو انتصاراته . لم يتردد فى أبعاد الرجل من دائرة الضوء . أرغمه على تقديم استقالته كأول مستشار لألمانيا فى ١٨ مارس منذ مائة عام .

الرجل .. هو بسمارك ، الذى وحد ألمانيا . وأقام إمبراطوريتها بسياسته المعروفة باسم « الحديد والدم » . أما الشاب فهو الإمبراطور ولهيلم الثانى ، المثير أنه لم تمر سوى ٥٥ عامًا على استقالة بسمارك ، حتى انفرط عقد ألمانيا بعد هزيمة هتلر فى الحرب العالمية الثانية .

كان يوم يجلله الحزن العميق . ولكن الحزن لم يطغ على حلم الوحدة الدفين فى الوجدان القومى . كان حلمًا مستحيلاً .لم يخطر على بال بشر أن يتحقق بهذه السرعة المذهلة .

ففى ذات صباح فى الخريف الماضى هبت من موسكو رياح ديمقراطية . لم يستطع سور برلين أن يصدها . اينعت زهور الحرية فى مدينة ليبزج . كان أهلها أول من تظاهروا . وبدأت الثورة الهادئة . ولم تتوقف حتى هدت آخر رموز الحكم الشيوعى فى انتخابات الحرية يوم الأحد الماضى .

هذه المدينة تتألق زهوًا الآن . باعتبارها مدينة « الأبطال » كان الألمان يتذكرونها قبل ذلك ، عندما يتذكرون شاعرهم العظيم شيللر . ففى ربوعها كتب قصيدتها الجميلة « أغنية للمرح » .

مدينة المرح والثورة كانت مهد الوحدة الجديدة . ولأن التاريخ لا يعيد نفسه . فالوحدة هذه المرة يحققها سياسى ألمانى يركب سيارة مرسيدس فارهة . ولا يخاصم الديمقراطية . كما كان يناصبها بسمارك العداء . إنه المستشار الألمانى هيلموت كول .

كول .. لم يكن يتوقع ما يحدث الآن . إنه رجل محظوظ . جاءه « التاريخ » حتى عتبة داره . وطرق بابه فى وقت كانت تؤرقه فيه هموم انتخابات ديسمبر القادمة . منذ هذه اللحظة السعيدة ، وهو يجدف بقاربه السياسى فوق أمواج التاريخ العالية .

فى الشطر الشرقى يحبونه . صوتوا من أجله فى انتخابات الديمقراطية . يقول البعض .. هذا صحيح . ولكنهم يحبونه مثلما يحبون

السيارة المرسيدس طراز ٢٣٠ . فهى رمز الرخاء والزهو . وتبقى قبل ذلك أشواق الإنسان للحرية .

يلومون « كول » لأنه يجدف بسرعة وقوة فوق موجة التاريخ فى اتجاه الوحدة . ولكنه يرد عليهم : « اذهبوا إلى نهر الراين .حاولوا أن توقفوا مجرى مياهه المتدفقة . لن تستطيعوا . إنه التاريخ » .

« التاريخ » فى ألمانيا يركب الآن سيارة مرسيدس . يشق طريقه بسرعة نحو بوابة برلين عاصمة الغد .

* ٢٤ / ٣ / ١٩٩٠

الأب الروحى !

من نافذة شرفة منزله ، الذى يطل على النهر ، كان يرقب الأفق . تتجاذب خياله أطياف ذكريات عمرها ٧٧ عامًا . هى عمره ولكنه لم يكتب من هذه الذكريات سوى صفحات قليلة . رغم أن حلم حياته المستحيل قد تحقق .

فقد ذهب منذ أيام إلى الشطر الشرقى من بلاده . لم يكن يحمل جواز سفر . ولم يعترضه الجنود عند نقاط التفتيش . كان فى استقباله جماهير حاشدة . حدثهم عن الوحدة القادمة .ومنحوه الرئاسة الفخرية للحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا الشرقية .

إنه « فيلى برانت » .. الرجل الذى دخل التاريخ ، لأنه تجاسر فى زمن سور برلين . ومد من فوقه جسرا للتواصل والتفاهم ، مع جيرانه الشرقيين القابعين خلف الأسوار . وهى سياسة الانفتاح على الشرق . وعليها نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٤ .

وعندما هبت عاصفة الديمقراطية فى الشرق ، سقط السور . وقبله كانت قد سقطت من حياة « برانت » أشياء كثيرة تؤرقه . ومنها اسمه . فاسمه فى شهادة ميلاده هو « هربرت فرام » فهو ينتسب إلى عائلة أمه « مارثا » . فهو لا يعرف والده الذى هرب عندما حملته أمه .

كانت طفولته بائسة . الفقر يكاد يفترسه . أمه تتركه فى رعاية جارتها حتى تكسب قوت يومها . لم ينقذ طفولته من هذا العذاب ، أحيانا ، سوى جده ولكنه انتحر ذات يوم فى ظروف غامضة .

شق الفتى طريقه فى الحياة بصعوبة . انضم للحركة الاشتراكية الديمقراطية . عندما كان عمره ١٩ عاما ، سيطر هتلر على السلطة وأصبح مطاردًا ومطلوبًا اعتقاله لعدائه للنازية .واضطر للهرب إلى النرويج . وعمل فى الصحافة هناك . وكان يوقع مقالاته باسم مستعار هو « فيلى برانت » . وهو الاسم الذى يعرف به منذ ذلك الحين .

ظل فى المنفى ١١ عاما . لم يعد إلى بلاده إلا بعد هزيمة هتلر فى الحرب العالمية الثانية . وتقسيم بلاده . انخرط فى الحياة السياسية . أصبح عمدة لبرلين الغربية خلال ذروة سنوات الحرب الباردة . ذاع صيته . وانتخب رئيسًا للحزب الاشتراكى الديمقراطى عام ١٩٦٤ . بعدها بخمس سنوات أصبح مستشارًا لألمانيا الغربية وطبق سياسة الانفتاح على الشرق .

ولكن الشرق رد عليه بنصب فخ له ، زلزل حياته السياسية .لقد زرعوا جاسوسا لصالح المانيا الشرقية فى مكتبه . وعندما اكتشفت الفضيحة عام ١٩٧٤ قدم برانت استقالته .

هذه الاستقالة لم تكن نهاية المطاف . فهو رئيس الدولية الاشتراكية . وهو الأب الروحى لكل الاشتراكيين الديمقراطيين فى الزمن القادم فى بلاده .

---

* ٣ / ٣ / ١٩٩٠
* مات فيلى برانت فى أكتوبر ١٩٩٢

الثعلب .. والتاريخ !

كان الرجل في أوج مجده .. لكنه عندما استيقظ ذات صباح اكفهرت شمس أيامه من حوله .. لقد تبين أن جاسوسا محترفا اخترق دائرته الخاصة واحتمى بظله وأصبح مساعدًا مقربًا له .. لم يجد الرجل مفرًا من تقديم استقالته تكفيرًا عن غفلته .. عندما غادر مكتبه إلى بيته كانت رياح الحرب الباردة تنفث سمومها فى الدنيا كلها .. هكذا كان حال المستشار الألمانى الأسبق « فيلى برانت » ذات ليلة شتوية حزينة من شهر أكتوبر عام ١٩٧٤ .

فى تلك الليلة كان رجل آخر يتهلل وجهه فرحًا .. يحتفل مع رفاقه بانتصاره الباهر .. لقد دخل تاريخ الجاسوسية وتوج نفسه أميرًا على عرشها .. إنه « ماركوس وولف » رئيس جهاز مخابرات « ألمانيا الشرقية » الأسبق الذى زرع الجاسوس فى بيت برانت .. وقد اكتسب « وولف » شهرة أسطورية فى دنيا السراديب السرية المظلمة .. كانت مغامراته تثير خيال كتاب الروايات البوليسية ومنهم الروائى البريطانى « جون ليكار » الذى أطلق عليه فى مسلسلاته اسم « كارلا » .

ثعلب مراوغ كان هو .. يفلت دائما من شباك أجهزة المخابرات الغربية .. اسموه الرجل الذى لا وجه له .. لأنهم لم يتعرفوا على ملامحه طوال ٢٥ عامًا .. حتى التقطوا له خلسة صورًا خلال زيارة قام بها لبروكسل عام ١٩٧٨ .

الثعلب أفلت من مصيدة الجغرافيا .. لكنه وقع أخيرًا فى مصيدة التاريخ .. عندما غردت طيور الحرية فى أوروبا الشرقية أيقن أن زمانه قد ولى وانتهى .. بحث عن جحر عميق يأوى إليه .. هرب عشية احتفالات الوحدة الألمانية إلى موسكو .. الرفاق القدامى هناك كانوا لا يزالون فى مواقع السلطة رغم راية الديمقراطية التى يرفعها جورباتشوف .

المقام لم يطل به فى موسكو .. لقد وقع رفاقه فى ذات مصيدة التاريخ بعد فشلهم فى انقلاب أغسطس ضد جورباتشوف هرع الجاسوس إلى فينا .. كان يحمل جواز سفر ألمانيا مزورا .. مرق به إلى داخل النمسا .. لم يكتشفوا أمره إلا بعد فترة من إقامته .. ساومهم وساوموه على كشف أسماء العملاء الذين زرعهم فى بلادهم ولكنهم رفضوا منحه حق اللجوء السياسى .

الثعلب لا يجد مهربًا .. قرر الاستسلام طواعية واختيارا للاعداء القدامى فى العاصمة الألمانية بون .. ليواجه قدره وحكم القضاء .. نهاية مفعمة بكل الرموز والدلالات التاريخية لثعالب الزمن القديم .

« فيلى برانت » .. مازلت أتذكر لحظة حزن قديمة عمرها سبعة عشر عامًا .. دموعها كانت حبيسة فى مآقى عينيك .. لكنك قد تشعر الآن بشىء من الارتياح وأنت تشاهد استسلام الثعلب واهتراء نظامه .. السلطة كانت مقصدهم ولعبتهم ... أما « الفكرة » فقد نشبوا مخالب مصالحهم وطموحاتهم الشخصية فى حروفها حتى أزهقوا الحلم وشيعوا الآمال القديمة إلى مثواها الأخير .

---

* ٢٨ / ٩ / ١٩٩١

غدًا .. يوم جميل !

كان فقيرًا . تداعب خيالاته أحلام المدينة الفاضلة . عندما أكمل تعليمه ، أصبحت الكتابة هوايته ، والصحافة حرفته . وذات صباح ، منذ زمن بعيد ، سافر إلى إسبانيا .. وقت اندلاع حربها الأهلية . وهناك انضم للثوار .. ليقاتل دفاعًا عن العدل والحرية . ولكن البوليس السرى للشيوعيين طارده . ففر هاربًا . بعد أن تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

إنه « جورج أورويل » الكاتب والروائى البريطانى الكبير .. إنه الآن يدخل التاريخ من جديد ، باعتباره صاحب النبوءة الكبرى فى عصرنا .

نبوءة سقوط النظم الشمولية .. فرواياته « مزرعة الحيوان » ، « عام ١٩٨٤ » .. شاهدان على ما يحدث الآن .

ليلة سقوط سور برلين ، قال شاب ألمانى « لن أبقى فى ألمانيا الشرقية .. إنها « مجتمع أورويل » يكابد أزمة عميقة . بعد ذلك قال « هانز مودرو » رئيس الوزراء الجديد آنذاك : « إنها البيروقراطية اللعينة .. لقد دمرتنا » .

« مودرو » .. جاء بعد انهيار سور برلين . إنه رجل مستقيم . يعيش حياة متواضعة ، لم تلوثها إغراءات السلطة . ولكن قدره أنه كان رجلا طيبا فى حزب قياداته سيئة السمعة .

كان يعرف أن مهمته أن يقود السفينة فى بحر عاصف حتى تصل إلى بر الديمقراطية . كان يرى قيادات الحزب الشيوعى وهى تسقط . هونيكر اعتقلوه بتهمة الفساد والخيانة بعد أن حكم البلاد لمدة ١٧ عاما . أما خليفته كرينتس فلم يبق فى منصبه سوى ٤٧ يومًا .

يوم سقوط كرينتس فى ٣ ديسمبر ١٩٨٩ ، قال مودرو : « إن أحداث اليوم روعتنى » . ورفض الانضمام للجنة المركزية الجديدة للحزب ، حتى يتفرغ لقيادة السفينة حتى ترسو غدًا عند شاطىء المستقبل الجديد . فغدًا ١٩٩٠/٣/١٨ تجرى أول انتخابات حرة منذ سلم ستالين الشيوعيين السلطة هناك بعد الحرب العالمية الثانية .

مودرو .. لم يشك لحظة فى أن مصيره محتوم . لن يكون سوى مجرد جملة ، كلماتها غير واضحة فى كتاب الزمن القادم .

وقد سمع « مودرو » هذه الأغنية الشعبية الألمانية كثيرًا . كلماتها تقول : إنه ليوم جميل ، ليته يبقى إلى الأبد » .. رددها عشاق الحرية وهم يعبرون سور برلين .

والآن .. وداعًا مودرو .. فغدًا يوم جميل .

---

* ١٧ / ٣ / ١٩٩٠

٧

الحرية .. وأخواتها

الفتاة الأخرى .. !

كانت فتاة جميلة . لكنها لم تنظر إلى نفسها فى المرآة كثيرًا . كانت مولعة بالنظر فى الكتب . لم تهتم بحفلات الشاى . ولم تحفل بالثرثرة ولا بآخر الأزياء . استبد القلق بأمها .. ظنت أن ابنتها لن تجد زوجًا . وزاد جزع الأم عندما تركت الفتاة منزل أسرتها الثرية .. لتبحث عن أقارب لها فقراء . عاشت معهم زمنًا . كان يثقل قلبها تعاستهم .

التقت فى رحلتها الوعرة فى دروب الحياة بكاتب شاب فقير . خلب وجدانها وعقلها بايمانه بفردوس العدل والحرية . أحبته . تزوجته . أنجبا فكرًا إنسانيا جميلاً . إنها « بياتريس ويب » ورفيق حياتها « سيدنى » أسسا مع الكاتب المسرحى العظيم « برنارد شو » الجمعية الفابية البريطانية .. من رحمها ولد حزب العمال البريطانى .

بياتريس ماتت قبل أن يثلج قلبها وصول حزبها إلى السلطة عام ١٩٤٥ .

فى ذلك الوقت كانت فتاة أخرى اسمها .. « مارجريت » تنهى دراستها الجامعية . كانت من فقراء القوم . أبوها كان بقالا . لكنها انسلخت بطموحها الجامح من عالمها . حشت خطاها فى الاتجاه الآخر ، عندما استيقظ الناس ذات صباح من عام ١٩٧٥ وجدوها زعيمة لحزب المحافظين .. وبعدها بأربع سنوات صارت أول رئيسة للوزراء فى بلادها . وفى أوروبا كلها .

فى ذاك الصباح .. استيقظت فكرة « البقاء للأقوى » التى صاغها « داروين » من سباتها . تحرك كتابه « أصل الأنواع » ليقبع فى حقيبة يد « مارجريت تاتشر » . تقول لكم .. الفقر خطيئة . على الفقراء أن يكفروا عنها بالموت جوعا ! لا مكان فى الدنيا سوى للقوى القادر على الصراع فى حلبة المنافسة .

حمى المنافسة فى السوق توهجت لسنوات ثم انطفأت عام ١٩٨٢ . عادت المشاكل القديمة تحاصر مارجريت . انخفضت شعبيتها .لكن قدرا معصوب العينين أنقذها . فقد انتصر جيشها فى حرب جزر الفوكلاند . ونجحت مرة أخرى فى انتخابات ٨٣ . وتفرغت لكسر عظام نقابات العمال . عاشت أزهى سنوات قوتها التى يحسدها عليها « داروين » نفسه !

قوتها لم تدم طويلا . فقد عادت ذات المشكلات التى حجمت جموحها لتعربد من جديد . البطالة والتضخم ينشبان مخالبهما فى وجه

طموحها . ونداء أوروبا الموحدة يحاصرها . وتمرد عليها المحيطون بها . أسقطوها .. بينما كانت تتشبث حتى الرمق السياسى الأخير برداء السلطة .

« بياتريس » .. يا صديقة الإنسان الطيب البسيط . يؤرقك ما يحدث . ولكن لا تجزعى .. فباطل وقبض الريح أى فكر بلا وجه إنسانى . الحضارة ليست مجرد جدران رخامية لامعة وشاهقة .. وإنما هى حديقة غناء تنبت فيها ثمار العدل وتصدح فيها طيور الحرية .

* ١ / ١٢ / ١٩٩٠

يوميات .. امرأة مشاغبة !

أم وأولادها الثلاثة . وجدوا أنفسهم بين مخالب زمن لا يرحم . كانوا فقراء . ولكن الأم لم تستسلم . خاضت غمار مصاعب جمة . حاولت الإفلات بأبنائها إلى شاطىء آمن . كانت تتحدى قدرًا عنيدًا . وتواجه عاصفة من الموت والخراب ، وقت اندلاع حرب ضروس . ولكنها فى رحلتها المستحيلة للنجاة فقدت أبناءها .

إنها « الأم شجاعة » فى مسرحية الكاتب الألمانى « برتولت برشت » . كتبها عام ١٩٣٩ عن حرب الثلاثين عامًا الأوربية . كان يلعن من خلالها الحرب العالمية الثانية التى فجرها النازى أدولف هتلر .

« بريشت » كان يناصب النازية العداء . اسمه كان فى صدر قائمة الإعدام ، عندما تمكن من الهرب من ألمانيا بعد احتراق مبنى البرلمان عام ١٩٣٣ ، لم يعد إلى برلين « الشرقية » إلا فى عام ١٩٤٨ ، بعد هزيمة هتلر .

لم يحمل جنسية ألمانيا الشرقية . وأكتفى بجواز سفر نمساوى . كأنه كان يريد أن يحتمى بين دفتيه من النقد الموجه ضده لأنه آثر الصمت على ما حدث من ممارسات جعلت الفكر محاصرًا فى أبواق الدعاية ، والحلم رهينة .

« برشت » كان أسعد حالاً من بطلة مسرحيته فقد مات عام ١٩٥٦ ، قبل ٤ سنوات من بناء سور برلين . وبقى السور ٢٩ عامًا ، حتى إنهار وسط عاصفة الحرية التى هبت عليه فى الخريف الماضى – وهكذا أنقذه القدر من لوعة الحزن على الفكر والحلم ، فلم يتجرع الأسى الذى تجرعته « الأم شجاعة » لموت فلذات كبدها .

« الأم شجاعة » تدب فيها الحياة من جديد . ممثلة بريطانية لامعة هى « جليندا جاكسون » تمثل دورها الآن وتثير جدلاً سياسيًا صاخبًا حول دور « الأم » وحول دورها هى القادم على مسرح الحياة السياسية . فهى تعتزم ترك عالم المسرح والسينما . واقتحام دنيا السياسة . فهى مرشحة فى قائمة حزب العمال البريطانى فى الانتخابات العامة[1] .

« جليندا » تدق خشبة المسرح السياسى دقات عنيفة تقول : « المشكلة الآن ليست الصراع على السلطة ، وإنما النضال من أجل إنقاذ روح البلاد » ثم تحتد فى قولها : « إن الفساد صناعة رائجة » !!

من تحت عباءة « الأم شجاعة » خرجت جليندا . فتاة تنتمى لعائلة فقيرة . أبوها كان عامل بناء . مات منذ عشر سنوات . تعيش مع ابنها الذى يدرس فى الجامعة . ويتطلع إلى أن يصبح صحفيًا . فقد انفصلت عن زوجها بعد زواج دام ١٧ عامًا .

---

(١) فازت جليندا فى الانتخابات

دنيا السياسة والفن الجميل لا يجيد اللعب على مسرحهما سوى إنسان مشاغب . « برشت » طلب أن يكتبوا فوق قبره : « هنا يرقد رجل ميت » ربما لم يبق منه شيء على الإطلاق . فقد كان إنسانًا مشاغبًا مثيرًا للقلاقل !!

« جليندا » .. رحلتك صعبة . مهمتك ليست مغامرة لتحرير سلحفاة بحرية من الأسر من بيتها الزجاجى ، وإطلاق سراحها فى البحر . لقد فعلت ذلك ، ذات يوم فى فيلمك « يوميات سلحفاة » .ولكن السياسة دنيا دروبها ليست مستقيمة . وعلى من يريد السير فى طرقاتها وشوارعها أن يكون مشاغبًا عظيمًا ونبيلاً .

* ٢٨ / ٧ / ١٩٩٠

الراوى .. والحديقة

شد الرحال إلى العاصمة الكبرى .. سبقته أمه إلى هناك بعد أن ضاقت ذرعا بوالده .. اضطربت أحواله المالية فأدمن الخمر .. الفتى لم يكن عاقا بوالده .. كان يبحث عن حلم يراوده .. أن يصبح كاتبا .. لكنه كان غريب الأطوار فى تلك المرحلة من حياته .. تحول إلى عبء ثقيل على والدته المعسرة .. عاش تسع سنوات عجاف لا يعمل .. لم يكسب خلالها من كده سوى ستة جنيهات .. كرس جهده ووقته لقراءة الكتب وذخائر التراث الإنسانى والفكرى .. ولأنه كان موهوبا فقد سطع نجمه وتألق فى دنيا الأدب والفكر .. الكوميديا على خشبة المسرح تقطر حبكتها بالفكر وتشع مواقفها بسخرية تخدش الزيف والرياء .

« برنارد شو » .. الكاتب المسرحى البريطانى مات عام ١٩٥٠ .. امتدت به رحلة العمر حتى بلغ الرابعة والتسعين .. عاشها متمردًا على مفردات الواقع الاجتماعى فى زمنه .. ولأنه كابد فظاظة الفقر .. فقد اعتبره جذر الفساد ورأس الشر .. جنحت به أفكاره إلى رحاب إنسانية عليا تضىء دروبها أمنية العدل وحب الحكمة .. أسهم فى تأسيس « الجمعية الغابية » مع اثنين من أعلام عصره .. سيدنى ويب وزوجته بياتريس ويب .. فى أروقتها ولد حزب العمال البريطانى .

« برنارد شو » .. تعتصره الأحزان الآن .. حزبه القديم يدخل مرحلة الخسوف السياسى .. يحتضر حتى الموت .. فشل للمرة الرابعة فى الفوز

فى الانتخابات .. ينتزع منه « المحافظون » النصر .. يقول الرواة .. ما يحدث أمر جلل وخطير .. الموت السياسى لحزب العمال ينذر بدخول البلاد إلى مشارف مملكة الحزب الواحد .. هكذا حال اليابان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. الحزب الحر الديمقراطى ينفرد بعرش السلطة .. لا تلوح أى بارقة أمل فى فوز الحزب الاشتراكى المعارض .. الأسباب تختلف .. هذا صحيح .. لكن هذه الظاهرة السياسية تثير التأمل .

الأدهى والأمر .. أن الحابل يختلط بالنابل فى الشارع السياسى .. « العمال » وقعوا فى مصيدة إغراءات السلطة وحبائلها .. نزعوا أوراق التوت .. عرايا هم الآن من كل فكر .. أبحروا بسفينتهم فى بحر « المحافظين » .. أعلنوا توبتهم عما سلف .. قال كبيرهم وقتها « نيل كينوك » .. أيها السادة .. أرجوكم .. امنحونا الفرصة .. نعدك .. لا تأميم .. ولا نزع للأسلحة النووية .. لم تشفع له توبته وقت الانتخابات .. لملم أوراقه واعتزل .

الأوراق تزداد اختلاطا .. « جون ميجور » كبير حزب المحافظين يعد الناس بالمن والسلوى .. أولى كلماته لهم بعد انتصاره الأخير .. تثير الريب والعجب .. إنه يبشرهم بالحلم « اليوتوبى » الأزلى .. مجتمع بلا طبقات فى بريطانيا .

« برنارد شو » .. هل لم يبق أمامك سوى أن تعيد أمامنا المشهد القديم المثير .. تتذكر وقائع ذاك اليوم البعيد .. وقتها استبد بك الشوق للعدل .. والوجد للفكر .. القيت خطابا لمدة ساعة كاملة .. جمهورك

لم يكن سوى ثلاثة شبان استلقوا فوق حشائش حديقة « هايد بارك » الشهيرة .. عندما كنت تتوقف عن الكلام لتلتقط أنفاسك .. كانوا يقولون لك .. حسنا اكمل .. قل ما تريد .. نعم .. قل ما تريد .. مهما كان الخطب عصيبًا .

* ١٨ / ٤ / ١٩٩٢

الحرية .. وأخواتها !

اختطف الموت أمه وهو فى السابعة من عمره .. وتولى أبوه رعايته .. وتمنى أن يصبح محاميًا مثله .. غير أن الفتى كان مرهف الحس ، عميق الوجدان .. فوقع فى عشق ربة الشعر وهوى فى غرام آلهة الحكمة .. أصبح شاعرًا ومفكرًا .. لكن زمانه كان رديئًا .. فقد حكموا عليه بالسجن لمدة ١٧ شهرًا بتهمة ملفقة .. ادّعُوا أنه هاجم أحد كبار المسئولين .. كان وقتها فى الثالثة والعشرين من عمره .. كابد فى زنزانته المظلمة جبروت الحكم الجائر .. لكنه لم يتخاذل يأسًا .. بل تحول إلى محارب جسور بالكلمة من أجل الحرية والرخاء والمساواة .. شعار الثورة الفرنسية الكبرى [١٧٨٩] التى أسهم بفكره فى تفجيرها .

إنه « فولتير » العظيم .. تستظل فرنسا بظلال مجده وعطاء فكره .. لن ينطفىء قنديله أبدًا .. فهو واحة الأمل للإنسان الظامىء للحرية والعدل .. راية « فولتير » يرفعها فى شموخ كل حكام فرنسا العظام فى رحلة صعودهم إلى السلطة وهبوطهم منها .

الجنرال ديجول كان عظيمًا وحكيمًا .. عندما احتلت القوات النازية بلاده ، فى زمن الحرب العالمية الثانية .. قال للدنيا كلها « فرنسا حرة » .. وناضل حتى تحررت باريس .. ديجول الأسطورة الوطنية لم يتمرد على أفكار فولتير عندما حانت ساعة هبوطه .. استجاب لإرادة الشعب الذى قال له « كفى مع خالص الشكر والتقدير » .

أجواء هذه اللحظة التاريخية ومشاعرها الغامضة والفياضة يكابدها الآن الرئيس الفرنسى ميتران .. منذ شهور وصحف فولتير تلاحقه .. تقول له كفى لقد تجاوزت أيامك فى السلطة سنوات حكم ديجول .. لقد سئمنا ثلاثين عامًا تحت مظلة الجمهورية الخامسة ..

يشتد صخب الكلمات ويعنف .. وميتران فى عامه الرابع والسبعين .. تقول كلماتهم .. الثعلب العجوز خانته الحكمة والحنكة .. لقد وصف زعماء الانقلاب الفاشل فى موسكو بأنهم القادة الجدد .. لقد أخذته الأحداث العاصفة فى أوروبا الشرقية وتحولاتها المتسارعة على حين غرة .. لقد كان يود ألا تتسارع الأحداث حتى يبقى جانب من النظام القديم !

« فولتير » .. أحد أحفادك أخطأ فى التعبير وإن لم يخطىء فى التقدير .. فهبت عليه عاصفة لا ترحم .. لكنك تتذكر أن نفرًا من أبناء فكر الثورة الفرنسية خرجوا من تحت معطفها .. واغتربوا فى متاهات الدروب الوعرة .. لكن رايتهم سقطت بعد أكثر من سبعين عامًا .. لعل مشكلتهم الكبرى أنهم خاصموا الحرية وأنكروها .. وادعوا انهم يفضلون أخواتها .. الاخاء .. المساواة ..العدل .. « ليس بالحرية وحدها يحيا الإنسان .. وبغير الخبز يموت » .. رغم بلاغة الشعارات لم يأتوا بالمن والسلوى .. ولا حتى بالخبزالوفير !

« الحرية وأخواتها » .. طريق خلاص الإنسان من أباطيل زمن القهر المدجج بالشعارات المخادعة ..

---

* ١٤ / ٩ / ١٩٩١

الحـلم .. والكابـوس !

امرأة فى ربيع عمرها نظرت لمن حولها فى قلق ، وقالت فى فزع : لقد عادت الأشباح من الماضى الموحش .. تنثر الظلمات فى الطرقات .. لم يدرك من كانوا فى صحبتها ما تعنيه .. اكتفوا بالتحديق فى وجهها الذى تنطق قسماته بالمخاوف والأسى .. فطنت إلى هواجسهم الدفينة فقالت : « إن هتلر الطاغية النازى قد ظهر فجأة فى كل مكان .. لقد كنت أظن أننا تخلصنا منه إلى الأبد .

فى ذات الوقت الذى كانت فيه هذه السيدة البولندية تفصح عن توجسها من الأيام القادمة .. كان الشباب فى دول أوروبا الشرقية يتخاطفون كتاب هتلر « كفاحى » . التعويذة الفكرية للنازية .. عشرون ألف نسخة منه نفدت فى بولندا ذات صباح .. لتمتلىء المكتبات من جديد بهذا الكتاب اللعين ..

مؤامرة .. لا أحد يعرف دار النشر السرية التى تغرق البلاد به .. يقول الراوى : الحركات العنصرية والنازية فى العالم الغربى تتضافر جهودها لمحاولة إقامة « الرايخ الرابع » فى أوروبا الشرقية .. ربوعها لا تنبت الآن سوى أعشاب اليأس والاحباط .

الناس خرجوا ذات يوم جميل من تحت العباءة الكثيفة للنظم الشمولية ... أضاءوا دروبهم بشموع الحرية فى الربيع الجديد الذى

بزغ على براغ .. كانوا من فرط فرحتهم وحبورهم يمنون أطفالهم بالخبز والحلوى .. والمن والسلوى .. لكن الحلم سرعان ما انطفأ بريقه .. وتحول إلى كابوس مروع .. لم يجدوا أمامهم سوى « السوق » المعبود الجديد الجامح .. على مذبحة لابد من تقديم القرابين ..

جيل تزهق أحلامه فى طوابير البطالة الطويلة أمام حوانيت لا سلع فيها ولا خبز !

« هتلر » تقدم ذات يوم مثل هذا الطابور .. واستولى على السلطة .. وأراد أن يجتاح الدنيا بأفكاره النازية التى تخاصم التاريخ .. وتعادى الانسان البسيط .. وتنصب نخبة عرقية فوق عرش العالم .. أحفاده يفطنون إلى هذه الحكمة السوداء .. يسربون وسط جو الاحباط كلماته اللعينة إلى مدن البؤس الجديدة .. وبين حروف الكلمات تختبىء الطلقات ..

اكتشفوا فى المجر تنظيمًا نازيًا مسلحًا كان يستهدف قلب نظام الحكم .. قالوا : إن أعضاءه تلقوا تدريبات عسكرية فى معسكرات سرية .. الحركات النازية فى الغرب تريد عبور بوابة المجر إلى أوروبا الشرقية بأسرها .. فهم هناك على موعد مع الرايخ الرابع !!

يحدث هذا فى الوقت الذى يزدهر فيه النشاط العنصرى والنازى فى أوروبا الغربية .. فى النمسا زعيم سياسى يقول البعض إنه « حفيد هتلر » فهو لا يخجل من تبنى سياساته النازية .. اكتشفوا هناك – أخيرًا –

تنظيمًا نازيًا مسلحًا يدبر لقلب نظام الحكم .. أما فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا .. فيرفع النازيون الجدد أعلام هتلر لاغتيال المهاجرين من أبناء العالم الثالث ..

الحكماء هناك يروعهم هذا المشهد .. يحذرون من هذا الطوفان حتى لا تغرق الحضارة ويغرق الإنسان فى دوامة الكراهية .. لكن التحذير لا ينفى النذير .

• ٢٥ / ١ / ١٩٩٢

أشـواق .. لا تنطفىء !

كان فى الخمسين من عمره .. عندما اشتد ولعه بقراءة كتب المغامرات وقصص أبطال الفروسية .. استولت مشاهدها المثيرة على خياله وعقله .. داهمته فكرة غريبة .. أن يصبح فارسًا مغوارًا .. يطهر الأرض من أعشاب الظلم ، وينقذ الضعفاء من جبروت الأقوياء .. وذات صباح خرج من داره شاهرًا سيفه .. ظن الناس فى قريته أن مسًا من الجنون قد أصابه .. لكنه لم يعرهم أى اهتمام .. امتطى صهوة خياله الجامح ليبدأ سلسلة من المغامرات الوهمية والمفارقات العجيبة .. بلغ الذروة عندما حارب طواحين الهواء وهو يصرخ بأعلى صوته .. سأقتل المردة الجبابرة !!

هذا هو « دون كيشوت » الذى أقعده الكاتب الأسبانى العظيم « سير فانتيس » على عرش الرمز الإنسانى .. عليك أن تبحث عن العدل مهما صادفت من أنواء .. حتى لو حاربت طواحين الهواء .. منذ ذلك الزمن البعيد يحلو « لدون كيشوت » أن يخرج من دفتى الرواية الرائعة ليتجول فى طرقات المدن .. وقد استقر به المقام منذ عامين فى روما وتسلل ذات مساء إلى داخل قصر الرئاسة .. وداعب بحكاياته خيال الرئيس الايطالى « كوسيجا » ولم يتردد الرئيس فى أن يقول للناس فى بلاده : إننى أشبه « دون كيشوت » ومن فرط إعجابه به يضيف : « إنه لم يكن مجنونًا عندما حارب طواحين الهواء .. لقد كان يدرك أنها ليست مردة .. لقد كان يتظاهر بذلك » !

« كوسيجا » .. أمره عجيب .. ظل طوال السنوات الأولى منذ توليه الرئاسة عام ١٩٨٥ مثل « دون كيشوت » طوال سنوات عمره الخمسين الأولى .. كلاهما كان لا يثير غضب أو حنق من حوله .. ثم بدأ كوسيجا يثير دهشة أهل روما .. حمل معوله وقال محذرًا .. لابد من إصلاح النظام السياسى فى إيطاليا .. وبدأ معاركه الصاخبة مع طواحين الهواء الجديدة .. النظام القضائى .. وأجهزة الأعلام .. والمؤسسة السياسية .. والجريمة المنظمة ..

يقول أقرانه ومساعدوه .. لقد بدأ الرجل يتكلم عندما اقتربت نهاية فترة حكمه .. فهو يدرك أن النظام السياسى الراهن الذى يرتكز على صيغة الحكومات الائتلافية الهشة قد دبت فيه عوامل الوهن ، واعترته الشيخوخة .. وهو يخشى إذا ما ترك الحال على ما هو عليه أن تشتد أعواد أعشاب الفوضى السياسية والعنصرية التى تغرسها فى الأرض الحركات والأحزاب الفاشية .

كوسيجا .. عندما انتخبوه رئيسًا قال .. حسنًا إننى أملك ولا أحكم مثل ملكة بريطانيا .. ولم يتبرم وهو قابع فى قصره يمارس طقوس الرئاسة الشرفية .. لكنه تمرد على الصمت منذ عامين .. ودخل حلبة السياسة من أوسع أبوابها .. وقال آنذاك أن من حقى حل البرلمان والدعوة لانتخابات عامة مبكرة وهو القرار الذى اتخذه بالفعل لتجرى الانتخابات المبكرة فى أوائل أبريل ١٩٩٢ .. إنه يطمح إلى تأهيل بلاده لأن تكون ندًا لأقرانها عندما تبدأ الوحدة الأوروبية القادمة .

عندئذ تذكر الناس موقفًا قديمًا أثار به « كوسيجا » ذهولهم وإعجابهم .. لقد قدم استقالته ذات يوم من عام ١٩٧٨ عندما اغتال أعضاء الألوية الحمراء الإيطالية « الدو مورو » زعيم الحزب المسيحى الديمقراطى الحاكم .. كان وقتها وزيرًا للداخلية .. وأعلن تحمله مسئولية الفشل فى إطلاق سراح مورو ..

« دون كيشوت » .. أراك بعين الخيال وأنت تتجول فى دروب دنيا الإسطورة .. تبحث عن المدينة الفاضلة .. رحلتك تبدو طويلة وشاقة .. تكتنفها الأخطار والمكائد .. لكن الشوق الإنسانى للعدل والحرية لن ينطفىء أبدًا ..

* ٢٢ / ٢ / ١٩٩٢

كوميديا .. الأحـلام

ضل رجل طريقه .. قادته قدماه إلى غابة كثيفة موحشة .. قضى فيها ليلة مروعة .. عندما أشرق نور الصباح ، أراد أن يرتقى جبلا يغمر ضوء الشمس قمته .. لكنه تراجع مذعورًا .. وحوش ضارية كادت تفتك به .. فى هذه اللحظة المفعمة بالخوف رأى شبحا .. توسل إليه أن يدله على طريق الخلاص .. قال له فى صوت هامس .. لا سبيل أمامك للنجاة سوى أن تقوم برحلة إلى الجحيم والمطهر والفردوس .. سوف أكون مرشدك .

لم يكن أمام الرجل أى خيار .. فالوحش من أمامه .. وظلمة الغابة تحدق به من كل صوب وحدب .. حلق مع طائر الخيال حتى نهاية الرحلة الفريدة والعجيبة .. وصفها فى رائعته الكونية « الكوميديا الالهية » .. إنه الشاعر الإيطالى العظيم « دانتى » .. أشعاره تجليات تفيض بالرموز السياسية والدلالات الاجتماعية .. الكوميديا رؤية أخلاقية .. دليل للافلات من مستنقع السفالة الاجتماعية .. وحتى لا تعم الأرض الشرور ..

« دانتى » .. مثاليا كان .. العدل والحرية والأخلاق .. قناديله التى تضىء الحضارة والدنيا .. عندما شب عن الطوق إبان القرن الثالث عشر كانت موجة عاتية من الاضطراب السياسى تجتاح بلاده .. انخرط الشاعر فى عالم السياسة ، وصراعات أحزاب زمنه .. كان ينتمى إلى

حزب البيض الذى تولى السلطة فى فلورنسا .. أوفدوه فى مهمة لمقابلة البابا .. تمكن حزب السود من الاستيلاء على السلطة .. حكموا عليه بالنفى حتى آخر العمر .. عاش مشردًا ومطاردًا .. كتب « الكوميديا » خلال رحلته التعسة والفظة فى مسارب الجحيم الأرضى ..

إيطاليا .. لم تعرف قدر شاعرها العظيم إلا بعد موته بسنوات .. هكذا حال الدنيا .. الشعراء النبهاء فيها غرباء .. مشاغبون .. يبدعون كلمات جميلة تمزق حروفها أقنعة الرياء والزيف .. وتعانق عالم الحلم .. وفى الجحيم الأرضى يلقى بهم مع المفكرين فى كل زمن يضل الخلق فيه الطريق إلى غابة الظلمات ..

إيطاليا .. لم تزل بعيدة عن رؤية شاعرها ورؤاه فى دنيا السياسة ... منذ أيام علت فى شوارعها أصوات الاحتجاج .. زمجرت فى صناديق الاقتراع فى أهم إنتخابات شهدتها منذ عام ١٩٤٦ .. تعثرت خطى الائتلاف الحاكم منذ ذلك الحين .. غلظت مخالب اليمين الفاشى .. يطرح دعاوى بانفصال الشمال الغنى عن اليمين الفقير .. أشباح الفوضى السياسية تعربد .. يقول حكيم إيطالى .. لقد انتهى النظام الحاكم .. ولا بديل جاهز .. فالأحزاب الأخرى مبعثرة .. ممزقة .. المأزق فى روما الآن ليس حالة خاصة .. العواصم الأوروبية تكابد أزمة هوجاء .. سقوط مؤسسات الحكم التقليدية التى رفعت أعلام زمن الحرب الباردة .. عندما انتحر الدب السوفيتى فجأة .. انتكست أعلامها .. تبعثرت قواها ..

تفسح فلولها الميدان لجحافل الردة الحضارية .. الفاشيون .. النازيون .. يهرولون فى الطرقات التى كانت آمنة !

« دانتى » .. ما العمل ؟ .. الهم والغم تمطرهما غيوم الأزمة .. الأحفاد ضلوا السبيل إلى غابات الظلمات .. لم يشرق عليهم بعد نور الصباح .. ينفطر قلبك حزنا على مسارهم .. وأسى وحسرة على مصيرهم .. لكن حبل الرجاء لم ينقطع .. لا تغلق بابك غضبًا .. لا تطفىء قنديلك يأسًا .. مع أول ضوء لشمس النهار .. ينقشع غبار الهواجس والأكاذيب .. ولن يبقى لنا نبراس سوى كلمات مضيئة عن الحرية والعدل والأخلاق .

* ١١ / ٤ / ١٩٩٢

٨

خيال المآتة ورأس الأفعى !!

الإمبراطور .. والفتاة الجميلة !

عاد إلى الوطن ، بعد سنوات من الدراسة فى فرنسا . قلبه كان يفيض بالشوق . ووجدانه ينهشه القلق . فتاته الجميلة التى لم يرها منذ رحيله ، يؤرقه أن تكون عواطفها قد فترت . أما الوطن فكانت أهواله تثير الشجن . وعندما نام ذات ليلة . ورأى فيما يرى النائم حلمًا مروعًا : الوطن تحف به المكاره . ولكن الخلاص فى الأفق .

هذه هى رواية « حلم إفريقيا » للكاتب الأفريقى الغينى « كامارا لاى » نشرها عام ١٩٦٦ . بعد ٦ سنوات من عام استقلال إفريقيا . الحلم الوطنى تحقق . لكن الحرية لم تأت . والخبز لا يكفى . والعدل غائب . والخوف يملأ النفوس . رواية مزعجة . تفيض برؤى سياسية موحية .

قبل عام من نشر الرواية . قفز إلى السلطة فى إفريقيا الوسطى رجل غريب الأطوار اسمه : « بوكاسا » . نصب نفسه إمبراطورًا عليها فى

احتفال أسطورى تكلف ١٨ مليون جنيه استرلينى . كانت « الإمبراطورية » تتضور جوعًا ورعبًا . وكان يلقى بمعارضيه أحياء لتأكلهم التماسيح والأسود .

ذهب « بوكاسا » فى انقلاب ولكن أقرانه لا يزالون . واحد منهم يحكم بلده منذ ربع قرن . أمواله التى هربها إلى الخارج تساوى ديون بلده .يمتلك قصرًا رخاميًا على طراز قصر فرساى بفرنسا . وتحت قدميه ٥٠ سيارة مرسيدس . وقائمة الثراء مذهلة بينما ٨٠٪ من شعبه لا يجدون ما يأكلون . أسلاف بوكاسا وأقرانه حولوا حلم إفريقيا إلى كابوس . عندما سجنوا بطل الرواية « كامارا » كانت تهمته هى أوهام الحرية والعدل . وقرروا إعدامه . ولم تنقذه سوى « دراموس » الفتاة الجميلة الأسطورية . قالت له لو كنت قد تخليت عن أحلامك النبيلة وشجاعتك لما كنت أنقذتك .

« دراموس » تغنى الآن على دقات الطبول الغاضبة فى بعض بلاد إفريقيا . إنها تشدو للديمقراطية . لكن رجل الخمسين سيارة مرسيدس يريد أن يقتنص الحلم الجديد . أعلن أنه أصبح ديمقراطيا . وسيتخذ له مقعدًا فوق كل الأحزاب ! لا أحد يصدقه .

يا فتاة حلم إفريقيا .. الناس أحلامهم نبيلة . يقبضون عليها كالقابض على الجمر . فى شجاعة وبسالة . هل تسمعين ؟ .. النجدة .

---

* ٥ / ٥ / ١٩٩٠

المدينة .. والسحر الأسود !

ذات صباح .. تسلل فى حذر من قريته .. ترك زوجته وأمه .. وهرب إلى العاصمة عمل موظفًا فى شركة بترول كبرى . جذبته إغراءات المدينة وأضواؤها الباهرة . لم يقاوم .. كان يريد أن يفلت من إسار قبيلته وأسرها .. فقد رفض أن يكون زعيمًا لها .. كان الانتماء للوطن غايته ، وعقيدته .

عندما كان طالبًا فى الجامعة ، انخرط فى حركة الاستقلال الوطنى ، وأقنع شيوخ قبيلته بتأييد « الحزب القومى » لم يعصوا له أمرًا ، فهو الشاب الوحيد المثقف بينهم ، أملهم المنشود فى الغد ، كانوا يراهنون على أن رياح الحرية القادمة قد تدفع به إلى منصب رفيع ، حتى يشعروا بالزهو والحماية تحت عباءته ..

الاستقلال جاء ، ولكن الشاب المثقف « ريمى » لم يصبح وزيرًا فى الحكومة ، ولم يرتد عن إيمانه بضرورة سحق مفهوم القبيلة حتى يتخلص الوطن من جرثومة قد تزهق وحدته .

هذه هى مسرحية « الناسك الأسود » للكاتب الكينى « جيمس نجومى » ، تصور جانبًا مفجعًا من دراما الوطن الأفريقى ، منذ سنوات الاستقلال ، لم تستطع الحكومات الوطنية أن تحل لغز القبيلة ، وأن تذيب طلاسمه فى بوتقة الوطن . كان عليها ألا تطارد الحرية ، وأن ترعى شجرة العدل حتى تفيء ظلالها الوارفة على الجميع ، ولكنها لم تفعل ، وسلكت دروبًا ملتوية أخرى .

حكماء القبيلة وشيوخها يقولون للشاب « ريمى » : « نريدك زعيمًا . عليك أن تشكل حزبًا سياسيًا تصطف القبيلة تحت لوائه ، حتى نصل إلى السلطة » .. يرد عليهم فى نبرة تشى بالوعى والتمرد : « يا قوم .. لابد من سحق القبيلة تحت حذائى » .. روعهم ما قال . إنه « السحر الأسود » للقبائل الأخرى قد مس الفتى !!

« السحر الأسود » خرافة حكماء الزمن القديم ، لكن ما حدث بعد هذا يضغط على العقل حتى ليكاد أن يتفجر من هول الواقع . « لبسوا قشرة الحضارة ، ولكن الروح جاهلية » وقبلية !!

عندما طلبوا من « صامويل دو » رئيس ليبيريا أن يغادر البلاد حتى يمكن فض اشتباك الحرب الأهلية المروعة التى تجتاح البلاد منذ ٦ شهور ، قال : « لا .. لابد أن تتوافر أولاً ضمانات أكيدة لحماية أبناء قبيلتى !! » باسم القبيلة كان يحكم منذ انقلابه العسكرى .. أما الوطن فهو مجرد راية مصلوبة على سارى العقل القبلى ، والجاهلى !

فى هذا الوقت ، اجتاحت كينيا موطن مسرحية « الناسك الأسود » رياح التغيير والديمقراطية ، قال حكماء القبيلة .. لا .. سحقًا للديمقراطية .. إنها سحر أسود ينفث الشرور وتعاويذه تأتى من خارج الحدود . إن لدينا ٤٠ قبيلة كلها تطمح فى الوصول إلى السلطة ودوت طلقات الرصاص فى المدينة .

يا حكماء الزمن القديم .. لا جدوى . لقد فات الوقت .. رياح الحرية والديمقراطية آتية لا محالة .. لتجتاح كل القراصنة ..

* ١٤ / ٧ / ١٩٩٠

خيال .. المآتة !!

كان رجلاً فاضلاً .. اختار أن يعلّم الأجيال الجديدة حروف كلمات الصدق والفضيلة وقصائد حب الوطن .. كان مزهوًا بذلك .. وعندما أصبح ناظرًا لمدرسة ابتدائية شعر بالرضا .. ولكن فجأة يحدث ما لم يخطر على باله .. لقد اختاروه وزيرًا بعد أن نالت بلاده الاستقلال .. ولم يمض وقت طويل حتى شعر باليأس وأقعد القنوط همته .. لقد امتلأ شراع سفينة السلطة بالرياح الفاسدة .. وجنحت بها تيارات المحسوبية ودوامات الحكم المطلق ..

هذه هى رواية « فتيان الثرثرة » للكاتب الإفريقى « كاميرون دادو » .. وهو يصور فى فصولها المأساوية الكابوس المروع الذى جثم على صدر دول إفريقية عديدة ... لقد رفعوا علم الوطن ... وأقاموا فى ذات الوقت نصبًا كئيبًا لخيال المآتة حتى يروع طيور الحرية ..

فى ذلك الزمن كان معلم آخر يحض تلاميذه على فضيلة الاستقلال .. يبشرهم بالحرية والطعام لكل فم .. كان اسمه « كنيث كاوندا » غير أنه ذات صباح ترك مدرسته .. وانخرط فى دنيا السياسة وشكل حزبًا جديدًا .. واعتقلوه .. وأمضى عامًا فى سجن موحش .. وعندما أطلقوا سراحه استمر فى النضال ضد الاستعمار حتى تحررت زامبيا وأصبح رئيسًا لها عام ١٩٦٤ .

منذ ذلك اليوم البعيد .. وكاوندا لم يبرح القصر .. كانت البدايات

مبشرة .. فقد طبق نظام التعددية الحزبية ورفرف علم الديمقراطية . ولكن العلم انتكس عام ١٩٧٣ .. ورفعوا لافتات الحزب الواحد .. وأفرط « فتيان الثرثرة » فى الكلام عن الوحدة والتوحد دفاعًا عن إنجازات وهمية على الورق ! ولم يجادلهم أحد كثيرًا .. ذلك أن خيال المآتة كان ينذر الجميع بسوء العواقب ... ويا طيور الحرية أغربى عن وجه حكماء الحزب الواحد فإنهم يثرثرون !

الفردوس المفقود .. لم يعثر عليه حكماء الثرثرة طوال رحلتهم الطويلة فى سراديب الحكم المطلق ... ولم يفزعوا عندما وطأت أقدامهم الجوعى فى الطرقات .. الموقف جد خطير ولكن فتيان الثرثرة يستعصى عليهم فهم الواقع المفزع فى زمن المجاعة الأفريقية ! يكفيهم إنجازا أن لافتات الحزب الواحد لا تزال معلقة على جدران ٣٨ دولة من ٤٥ دولة فى إفريقيا جنوبى الصحراء !!

حتى عندما بدأ الزمن يتغير بانهيار نظم الحزب الواحد فى أوروبا الشرقية .. قال أحد الحكماء مستنكرًا « إنها الديمقراطية اللعينة بدعة هذا الموسم » ! وقال حكيم آخر « إن المنادين بالديمقراطية مجرد فئران مذعورة » !! غير أن رياح الديمقراطية الصاخبة فى الشوارع الأفريقية لم تعبأ بكلام الحكماء القدامى .. وأسقطت خيال المآتة إلا قليلا !

ثم كان المشهد حزينًا .. عندما قذف دعاة الديمقراطية موكب « كنيث كاوندا » منذ أيام بالحجارة والقمامة .. وذرفت صحيفته الرسمية دموع أحبارها وهى تنشر ما حدث .

يا أيها المعلم القديم ... يشعر المرء بالأسى من أجلك .. لقد كانت قامتك مديدة بقدر احتضانك لحركات التحرر الوطني .. وقد تحملت كثيرًا من أجل هذا الهدف النبيل .. ولكن ما العمل الآن ؟ ... إن زمن حكماء الثرثرة في رواق سلطة الحزب الواحد ولى وانتهى .. ولم يبق سوى فضيلة الاعتراف .. والرحيل .. وداعًا ! .

* ٢٠ / ٧ / ١٩٩١

القناع .. والتماثيل !

كانت أمنية والده أن يرث ابنه فأسه . ويصبح فلاحًا مثله لكن الاقدار شاءت أن يصبح الفتى زعيمًا وطنيا .. غير أنه تمسك بفأس أبيه .. لم يسقطه من يده .. كان هدفه أن يحرث أرض بلاده لتنبت أشجارًا وارفة الظلال للحرية والعدل .

عندما أكمل تعليمه .. أصبح مدرسًا . وانتقل من القرية إلى المدينة . هناك تشكل وجدانه الوطنى . وصقلت التجارب أفكاره . وانخرط فى صفوف حركة الاستقلال .. وحمل راية الوطن . لكنهم تآمروا عليه .. اغتالوه عام ١٩٦١ .. عندئذ ذرفت إفريقيا قارة الفقراء الحالمين بالغد .. دموعها على أنبل الشهداء .

إنه « بياتريس لومومبا » بلده كانت الكونغو « زائير الآن » .. لكن إفريقيا كلها كانت وطنه وموطنه .. فهو واحد من رواد الحرية .. أبطال الموجة الأولى العاتية لاستقلال القارة .

القارة السوداء .. عندما نفضت عن كاهلها غبار الاستعمار .. تعثرت مسيرتها فى أوحال الطغاة . كان قدرها كصفتها .. مأساة مروعة يوجز بشاعتها « منجستو » آخر الطغاة الهاربين . لقد حكم أثيوبيا أربعة عشر عامًا .. لم يشيد خلالها جسرًا .. وإنما هدم كل جسور الوطن .. حتى تمزقت أوصاله ..

« منجستو » لم يقرأ تراث « لومومبا » .. لم يتعلم فى محراب الوطن . لقد انكفأ على ذاته الموحشة – لا يرى غير أطماعه – كان يحتمى وراء أسوار القصر بشعارات زائفة ومزيفة .. يحلو له رؤية الأسود الحبيسة فى أقفاصها الحديدية .. هواية وحشية ورثها من سلفه الامبراطور هيلاسلاسى الذى أطاحوا بحكمه فى انقلاب عسكرى عام ١٩٧٤ .

عندما سقط نظام الإمبراطور القديم .. لم يقفز منجستو إلى كرسى السلطة .. تريث حتى يقضى أولا على كل الرفاق .. كان المشهد داميًا عام ١٩٧٧ عندما أطلق عليهم الرصاص خلال اجتماعه معهم . ووثب وحده على عرش الإمبراطور .. لكنه لم يجاهر بأطماعه .. بل وضع عليها قناعًا سوفيتى الصنع .. وحتى تنطلى الخدعة أقام تماثيل ماركس وانجلز ولينين فى كل مكان .. حتى يحصل على « صدقات » موسكو !

لكن الدنيا تغيرت فجأة .. لقد بدأ زمن جورباتشوف عام ١٩٨٥ .. هبت رياح الحرية .. قوضت سور برلين عام ١٩٨٩ ، عندئذ ساورت الهواجس منجستو .. خاصة بعد أن أوقفت موسكو مساعدتها له . بادر بتحطيم التماثيل القديمة .. وغير جلده السياسى كالحرباء .

ظل طوال عامين يتقن فنون الحرباء .. لكنها خذلته ، عندما ضيق عليه الثوار الخناق .. واستشرت المجاعة فى البلاد .. هرب إلى مزرعته فى زيمبابوى .. وهو يمنى النفس بالانتقال إلى فيلا أنيقة يمتلكها فى جنيف .

« لومومبا » .. القلب يفيض بالآلام والأحزان .. ولكن لا تيأس .. قارتك العذراء لم يمسس الطغاة خصلة من شعرها رغم شراستهم .. الحلم الوطني لا ينطفىء بريقه المتوهج مهما طمرته أوحال منجستو وزمنه المقيت الرديء .

* ١ / ٦ / ١٩٩١

رأس .. الأفعى !

كان الظلام يعم المدينة عندما اقتربت الطائرة من مشارفها .. وعندما حلقت فوق أرض مطارها .. تلقى قائدها انذارًا بعدم الهبوط .. وأطفأوا أنوار المطار .. فاستدارت الطائرة لتعود من حيث أتت .. كان على متنها زعيم إفريقى كبير .. اشتعلت فى بلاده نيران مؤامرة شيطانية بعد خمسة أيام فقط من حصولها على الاستقلال عام ١٩٦٠ .. لم يكن هاربًا يسعى لطلب اللجوء السياسى .. وإنما كان مثاليا وجسورًا يريد وحده اقتحام الاقليم الذى أعلن الانفصال فى اليوم الحادى عشر للاستقلال ! .. لكن الأعداء تربصوا به .. حاصروه .. اغتالوه .. أصبح أسطورة إفريقية إنه : « بياتريس لومومبا » ..

كان أول رئيس لوزراء الكونغو « زائير الآن » .. روعت وقائع اغتياله فيلسوف فرنسا العظيم .. « جان بول سارتر » .. فكتب عنه دراسة ضافية قال فيها : « الأمم الإفريقية تكتشف قدرها فى الكونغو » .. وأكد أن « موبوتو » اختطف السلطة وأجهض الحلم الإفريقى .. قال ذلك قبل أن يمتطى « الشاويش » صهوة بلاده رسميا عام ١٩٦٥ – كأن سارتر كان يرى بعين التاريخ وحكمته المستقبل المظلم الذى ستئول إليه زائير بعد ٢٦ عامًا من حكم الفرد المطلق .

« موبوتو » .. لم يكن وحده الذى خنق الحلم .. شاطره فى ذلك كل « حكماء » الزمن الإفريقى الأسود .. قالوا وهم يقرأون من كتاب

الاستبداد .. باسم « فضيلة » الوحدة والتنمية .. الحزب الواحد يعصمكم من الفقر والخوف .. وسجنوا خلف قضبانه الكلمات .. وتفرغوا لجمع الثروات ..

وهم فى طريقهم لإقامة تماثيل زمن البؤس .. قال حكيم فى السنغال عام ١٩٦٢ .. « لا يمكن أن يسبح تمساحان فى مياه خليج واحد » ! .. تلقف الطغاة شعاره .. زينوا به جدران الحزب الواحد .. إفريقيا تزداد فقرًا وقهرًا ..

رجل صالح .. استبد به الفزع .. قال فى حسم وغضب لمن حوله : اضربوا رأس الأفعى حتى تبرأ البلاد من الغمة .. الحزب الواحد أصل البلاء وأس الشقاء .. هذا ما حذر منه الزعيم الافريقى « جوشوا نكومو » أقرانه فى زيمبابوى منذ سنوات خلت .. لكن كلماته ذهبت أدراج الريح وذهب هو معها .

ومرت السنوات .. وتدفقت معها مياه كثيرة فى مياه نهر الكونغو حيث يخت موبوتو .. الذى يعتصم به بعيدًا عن شغب المدينة .. وعندما شعر بأن رياح الغضب تكاد أن تعصف به ظن أن فى وسعه أن يحتال عليها .. فساعد ومول تشكيل مائة حزب سياسى جديد .. حتى تغرق البلاد فى متاهات الصخب السياسى .

ولما أيقن الناس من الخدعة .. قالوا إن الحرية الوحيدة التى نمارسها هى شراء رباط عنق « كرافتة » .. فقد كان موبوتو قد حرمها وجرمها

تحت دعوى « الأصالة » .. حتى حماه نظامه تذمروا وتمردوا .. ودمروا العاصمة وضواحيها .. كانوا يبحثون عن فتات الخبز .

« جان بول سارتر » .. يامن ذرفت دموع كلماتك وأفكارك على انطفاء الحلم الأفريقى فى لحظة توهجه الأولى .. لتكابد افريقيا طوال ثلاثين عامًا من الظلمات والطغاة .. رأس الأفعى لن يفلت .. لن يعصمه يخت الطغيان من الطوفان .

* ٥ / ١٠ / ١٩٩١

الصقر .. والعرش !!

كانت ليلة موحشة .. لم يستطع أن ينام طوال ساعاتها الطويلة والكئيبة .. فقد استبد به الأرق واعتصره القلق وافترسته الهواجس .. بدا أن حياته تفر منه ، وأن مستقبله معتم .. وفجأة قفز من فراشه وخرج إلى الطرقات .. تعلقت عيناه بالقمر .. وقال لنفسه وكأنه يولد من جديد .. « لا أريد سوى الحرية » .

هذه قصة قصيرة للكاتب الكينى المبدع « جيمس نجوجى » .. لعل سطورها تصور الحلم الافريقى الذى لم يتحقق فى بلاده منذ استقلالها عام ١٩٦٣ .. الحلم الذى تحول إلى كابوس مروع .. هذا ما أكدته أحداث ليلة السبت الماضى .

فى تلك الليلة كان رجل كينى عجوز فى الثمانين من عمره يرقد فى فراشه .. عندما اقتحموا منزله .. وانتزعوه « بيجامته » إلى قسم الشرطة .. اتهموه بالدعوة إلى الديمقراطية .. قال لهم فى تحد .. نعم هذا صحيح .. لم يخش سطوتهم ولا غلظتهم .. إنه المناضل الكينى أودينجا .

حراس نظام الحزب الواحد يترصدون بهراواتهم خطواته منذ زمن بعيد .. اعتقلوه فى السنة السادسة للاستقلال .. وقتها كان الحاكم بأمره زعيمًا تحيط به هالات السلطة هو « جومو كينياتا » .. لكنه كان يخاصم الديمقراطية ويمقت الحرية .. قال لمن يعنيه الأمر .. « إننى صقر أحلق فى السماء حتى أنقض على فريستى » .

شراسة الصقر لم تخمد حركة الديمقراطية الوليدة .. اغتال أعوانه عام ١٩٧٥ زعيما بارزًا هو جوشيا كيروكى .. لأنه حذر مواطنيه من سرطان الفساد .. « جوشيا » .. كان مناضلا قاتل فى الأحراش فى صفوف حركة التحرر الوطنى حتى نالت كينيا استقلالها .. لم يقلده الأب العجوز وساما وإنما رشق فى قلبه رصاصة الموت !

الموقف هناك لم يتغير رغم مرور ١٥ عاما على اغتيال جوشيا .. لقد اغتالوا هذه المرة وزير خارجيتهم « روبرت أوكو » لأنه تجاسر على كشف الفساد والتصدى للمفسدين .. أكد محقق بريطانى محايد أن وزيرين كينيين ضالعان فى الجريمة .. سلطة الحزب الواحد تختزل الآن فى معنى مفجع .. هى « مافيا » تقتات على الفساد وتعربد فى ظلمات الديكتاتورية .

« دانيال آراب موى » .. لا يزال يلوح بسيف سلفه كينياتا ويقول « فتران الديمقراطية سوف اسحقها » ! لم يثنه عن شططه أن « كينيث كاوندا » الأب القديم لزامبيا طوال ٢٧ عاما قد غادر مسرحها السياسى مكرها لا بطلا .. كان حتى آخر لحظة من عمره السياسى يتمسك بالعرش ويحذر من طوفان الدم من بعده .. لكن أحدًا لم يذرف عليه أى دمعة فى صناديق الاقتراع ..

لا معنى الآن للأساطير القديمة الزائفة .. آباء الزمن الأفريقى كانوا غلاظ القلب .. تعلقت أفئدتهم بعرش السلطة .. لم تزعجهم إحصائيات الفقر والموت جوعًا .. أغلقوا نوافذهم حتى لا تؤرقهم أنشودة طائر الحرية .. لن يغفلت أقرانهم مهما كانت أسنة رماحهم طويلة .

* ٢٣ / ١١ / ١٩٩١

الممثل .. والمرتزقة !

ذات صباح ، منذ زمن بعيد ، قرر شاب مغامر مولع بالشهرة ، أن يهجر خطيبته الجميلة . ويرحل إلى بلاد بعيدة مجهولة . كان يسعى لاكتشاف لغز نهر النيل ووسط إفريقيا ، وأن يكون « مرشدًا » للغزو الأوروبى للقارة .

ولأنه كان بلا قلب ، فلم يحزن عندما عاد من رحلته ليجد فى انتظاره رسالة من خطيبته القديمة تقول فيها : لك الشهرة وحدك . أما أنا فقد تزوجت .

هذا الشاب المغامر « هنرى ستانلى » هو « الأب الروحى » لأجيال من القتلة المأجورين الذين عرفوا فى أفريقيا وآسيا بالمرتزقة الأوروبيين . ومثيرة جدًا حكايتهم الأخيرة التى استمرت ١٤ عاما حكم خلالها ثلاثون منهم بلدًا أفريقيا هو : جزر القمر .

فبعد ثلاثة أسابيع من استقلال الجزر من فرنسا . وتولى أحمد عبد الله الرئاسة ، وصل إلى الجزر مرتزق فرنسى هو « بوب دينار » ومعه ثلاثون من أعوانه . وأقالوا عبد الله ونصبوا رجلا غريب الأطوار اسمه على صويلح رئيسا .

ولكن « على » أمر ذات يوم جنوده بقتل كل الكلاب لأنه رأى فى منامه أن كلبًا ينهش لحمه حتى الموت ! عندئذ غضب عليه المرتزق

« دينار » الحاكم الفعلى . وأقاله . وأعاد عبد الله من منفاه ليمثل دور الحاكم لمدة ١١ عاما .

وذات صباح منذ ثلاثة أسابيع اقتحم أحد المرتزقة غرفة نوم عبد الله . وقتله . وتولى « دينار » حكم الجزر .

ليس هذا خيالا . ولكنه حقائق مروعة .. لم يسدل الستار عليها إلا منذ أيام عندما ضغطت فرنسا على المرتزقة الثلاثين فرحلوا من الجزر وتوجه دينار إلى جنوب إفريقيا التى كانت تساعده خلال سنوات حكمه !!

عندما قرأ ممثل أمريكى شهير هو كلينت ايستود مغامرات المرتزق « دينار » تعاقد على أن يمثل حياته فى فيلم . والمشكلة أن الفيلم مهما كانت براعة مخرجه . ومهارة ممثليه لن يكون أكثر إثارة مما حدث فى بلد تعرض لمؤامرة شيطانية حاصرته فى دائرة الجغرافيا ، وعزلته عن حركة التاريخ .

• ٢٣ / ١٢ / ١٩٨٩

اغتيال طاغية

منذ كان طفلاً صغيرًا ، وهو يعمل لكسب قوت يومه ، كان ينتمى لأسرة فقيرة ، لكن والده أصر على أن يعلمه ، ولم يخذله الفتى ، فقد كان عنيدًا وذكيا . وأصبح مدرسًا للتاريخ . لكن طموحه كان عظيمًا ، فشد الرحال إلى بريطانيا . ومن جامعاتها حصل على درجة علمية ، وتشكل وجدانه الثقافى ، ورؤيته الاجتماعية من خلال تأثره بكتابات الاشتراكيين « الفابيين » عن العدل والحرية . كما أصبح الزعيم الهندى العظيم غاندى ملهمًا لطموحاته النبيلة .

عندما عاد إلى بلاده ، لم ينضم للصفوة المترفة ، وكان يمكنه أن يكون أحد نجومها الساطعة ، لكنه نزل إلى الشارع السياسى ليقود حركة تحرير بلاده من الاستعمار ، والقهر وعندما حصلت بلاده على استقلالها ، أصبح أول رئيس لها ، وظل حاكمها لمدة ٢٤ عامًا ، لكنه قاوم إغراءات السلطة وغواياتها وعندما استقال ليفسح المجال للقيادات الشابة ، كان لا يزال يعيش فى ذات المنزل المتواضع الذى كان يقطن فيه قبل توليه السلطة .

إنه « جوليوس نيريرى » رئيس تنزانيا السابق . والمع أبناء الوطن الإفريقى . ويذكر له التاريخ أنه أسهم فى اقصاء طاغية هو « عيدى أمين » من فوق عرشه فى أوغندا .

لكن طاغية آخر اقتنص السلطة فى بلد إفريقى آخر هو « ليبريا » بينما كان نيريرى يتأهب لترك الحكم طواعية واختيارًا .

الطاغية الجديد ، الذى فاقت شهرته الدامية الآفاق ، هو « صامويل دو » . كان مجرد « شاويش » فى الجيش ، لم يكمل تعليمه الثانوى . ولذلك كان حواره مع أبناء الوطن بالطلقات وليس بالكلمات .

استهل الطاغية تاريخه الأسود بمشهد عنيف وغريب . جرد كل وزراء الحكومة السابقين من ملابسهم وساقهم عرايا فى شوارع العاصمة حتى الشاطئ ! وهناك أطلق عليهم الرصاص . بعدها نصب نفسه قائدًا للجيش ، ثم رئيسًا للدولة ، بعد انتخابات مزورة .

كان من الطبيعى أن يتفشى الفساد والإفساد فى ليبيريا .. ومن بوابة الفساد ، هرب ذات يوم من عام ١٩٨٣ أقرب مستشارى الطاغية بعد أن سرق ٩٠ ألف دولار .. لكن اللص ، بعد أن نفدت أمواله ، عاد مع بداية عام ١٩٩٠ ليشن حربًا أهلية قبلية ضد صديقه القديم ، ووسط الصراع اغتالوا « دو » .

لم يذرف عليه أحد دمعة حزن أو رثاء وما كان ينبغى لأحد أن يبكى على اغتيال طاغية .. أفرخ نظامه طغاة آخرين يتصارعون الآن على السلطة ، رغم أن البلاد أصبحت مجرد أطلال ..

أفريقيا .. يا قارة أفقرها الطغيان ، وأتعس شعوبها .. لا عاصم لكم اليوم ، أو لغيركم سوى الديمقراطية ، طريقكم إليها صعب وعسير ، ولكن لا سبيل آخر للحرية والعدل . وعليكم أن تختاروا .

* ٢٩ / ٩ / ١٩٩٠

فهرس

الموضـــوع	الصفحة
الإهـداء	٥
مقدمـة : مشاهد من زمن التحولات الكبرى	٧
١ – رفاعة .. يقول لكم	١٣
٢ – دموع الفيلسوف .. والمشهد الأخير	٤٤
٣ – شموع الحرية .. وحكمة « السوبر مازكت »	٥٧
٤ – الفتى الأحمق .. وصمت إسماعيل	٧٤
٥ – أسطورة الماضى الجميل .. ولحظة العناق	٨٥
٦ – التاريخ .. فى سيارة مرسيدس	٩٦
٧ – الحرية وأخواتها	١٠٥
٨ – خيال المآتة .. ورأس الأفعى	١٢٥

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٤٨١٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4090-7

١ / ٩٢ / ٣٣٧
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

رفاعة الطهطاوى (رافع راية النهضة الفكرية الحديثة)

عبد الرحمن الكواكبى (المفكر العربى الكبير)

عبد القادر الجزائرى (الأب الروحى للجزائر الحديثة)

عز الدين القاسم (بطل الثورة الفلسطينية)

فولتير - برنارد شو - دانتى - الجبرتى - عبد الله النديم ..

كارل ماركس - فيدل كاسترو ...

● هؤلاء رفعوا أعلام الحرية للقضاء على الديكتاتورية والطغيان السياسى ..

● حكايات وحكايات .. رحلة قصيرة فى قلب وعقل كل مفكر نتعرف من خلالها على معنى الحرية والنضال من أجلها ..

دار المعارف

٤٠٦٢٨٤

تصميم الغلاف مال بدران